

# أزمة الإنسانية

ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

الطبعة الأولى  
١٤٢٧ هـ - يناير ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo. com >

دراسات قرآنية

(١)

# أزمة الإنسانية

ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

د. طه جابر العلواني

مكتبة الشروق الدولية



## المحتويات

الموضوع	الصفحة
- تقديم أ. د. على جمعة عبد الوهاب	
مفتى جمهورية مصر العربية	٩
- مقدمة السلسلة	١٣
• كلمة لا بد منها: «المفبركان الباطل» لا «الفرقان الحق»	١٦
- اعتداء على البشرية كلها	١٧
- القرآن حافظ رسالات الله كلها	١٨
- حفظ الله القرآن وعصمته له	٢٠
- المحاولات الفاشلة للنيل من القرآن	٢١
- الفرضيات الخاطئة	٢٢
- «المفبركان الباطل» لا ينتمى إلى أى دين	٢٤
- بعض محاولات أسلاف كذابى العصر	٢٥
- تحدى القرآن	٢٧
- نظم القرآن حافظه الداخلى	٢٨
- عصمة القرآن من أى نوع من التحريف	٣٤
- إرهابات سبقت تأليف «المفبركان الباطل»	٣٥

- ٣٥ ..... - توظيف الدين أم اتخاذه مرجعية؟
- ٣٦ ..... - خطوات تنفيذية
- ٣٩ ..... - منظمة الأديان المتحدة
- ٤٢ ..... - صلوات مشتركة
- ٤٣ ..... - درس من الأمم المتحدة
- ٤٧ ..... - «المفبركان الباطل»
- ٤٧ ..... - وليم جلادستون والقرآن
- ٤٨ ..... - المفاهيم الخاطئة
- ٤٩ ..... - تغييب مفهوم الأمة
- ٥١ ..... - إنهم يعرفون أهمية القرآن وفاعليته
- \* الحلقة الأولى : أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم فى الخلاص منها.**
- ٥٣ ..... - تمهيد
- ٥٤ ..... - الأمة واستجلاء معانى القرآن
- ٥٥ ..... - العلوم النقلية
- ٥٧ ..... - إطلاقية القرآن والمعارف النقلية
- ٥٨ ..... - سبيل الخلاص هدف عالمى إنسانى
- ٥٩ ..... - نقطة البداية فى فهم الحالة الراهنة
- ٦٨ ..... - ضرورة بذل الجهود المعرفية لتنقية التراث
- ٧٠ ..... - الديمقراطية والحل
- ٧٢ ..... - الإنسان حيوان إعلامى

- ٧٤ ..... ماذا عن أمتنا؟
- ٧٦ ..... العولمة وما تعنيه
- ٧٨ ..... الارتداد إلى الموروث
- ٧٩ ..... فهل يكون الحل علمياً
- ٨٠ ..... أين الخلاص؟
- ٨٥ ..... خطابات التغيير الأخرى
- ٨٦ ..... الأمة القطب بمجموعها وبخصائصها
- ٨٧ ..... أهم خصائص التكوين
- ٩٠ ..... الأمة بين جور النظم وفتيات التنظيمات
- ٩١ ..... منكم لا عليكم
- ٩٢ ..... الاستبداد لا يأتي بخير
- ٩٧ ..... ظاهرة الصراع العربى الصهيونى ودلالاتها
- ١٠٠ ..... فماذا عن أهل القرآن؟
- ١٠٢ ..... بعض أسباب الفصام الحالى بين القرآن وحملته
- ١٠٧ ..... وماذا بعد؟
- ١١٠ ..... بناء الوعى بالقرآن
- ١١٥ ..... الخاتمة
- ١١٦ ..... قائمة المراجع
- ١١٨ ..... تعريف بالمؤلف
- ١١٩ ..... أعماله المنشورة



## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

### تقديم

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين . نستغفره، ونستعينه،  
ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.

ونصلّي ونسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه  
واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنّ «علوم القرآن» من أجلّ وأشرف علومنا الإسلاميّة - التي  
أسّسها علماؤنا وأئمّتنا وبنوا مبادئها ومسائلها عبر القرون ؛ لتكون وسائل  
تعين «الأمة المسلمة» على استجلاء معانى القرآن، وتلاوته حق التلاوة،  
وفهمه وتدبره، وصياغة حياتهم به، وإقامة مجتمعاتهم على بيّنة ونور  
منه . والقرآن كتاب الله - تعالى - وكلامه لا تنقضى عجائبه، ولا ينضب  
معين معانيه ودلالاته . وقد أنزله الله على خاتم النبيّين ليقيم بعد ختم  
النبوت به مقام الأنبياء والمرسلين ؛ فهو الكافي والشافى والمغنى عن تابع  
النبوت، وتتالى الرسالات . وعلوم خدمة ذلك الكتاب المعجز لا يمكن

أن تقف عند جهود جيل واحد من أجيال الأمة أو قرونها؛ لأنّ هناك وسائل غير ثابتة، وفي دائرة تلك الوسائل المتجددة تتنافس الأجيال بحيث يكون لكل جيل نصيب من شرف خدمة القرآن، وسبيل للانضمام إلى حملة لواء القرآن.

وإعادة صياغة «علوم القرآن»، وتقديمها لأجيالنا الواعدة بأسلوب يلائم مداركها، ويناسب قدراتها، أمر في غاية الأهمية في عصرنا الحاضر. ولا يجيد القيام به إلا من أخذ من علوم القرآن وعلوم المقاصد والوسائل الإسلامية بنصيب وافر. وأخذ - كذلك - من معارف العصر، والتيارات والتوجهات البارزة فيه بمثله.

والأخ العزيز الأستاذ الدكتور طه جابر العلوانى واحد من أولئك القلائل الذين جمعوا بين الدراسات الشرعية حيث نال جميع شهاداته الدراسية في الأزهر الشريف من الثانوية - إلى الدكتوراه. ثم مارس التدريس في كثير من الجامعات العربية والإسلامية، وأخيراً استقر به المقام في الولايات المتحدة الأمريكية وتولى فيها عدداً من المناصب الأكاديمية التي أتاحت له فرصة الاحتكاك بجوانب كثيرة من الوسائل التي يعرض فيها الإسلام والقرآن - بخاصة - في أقسام الدراسات الإسلامية في كبريات الجامعات الأمريكية.

فحين يكتب في هذه العلوم فإنّه يعالجها، والبعد العالمى للقرآن ورسالة القرآن وخطابه حاضر في ذهنه - فتكون معالجته جامعة يحتاج إليها الباحث المسلم ولا يستغنى عنها الباحث الغربى.

وقد أطلعنى - حفظه الله - على كثير من حلقات هذه السلسلة المباركة فسعدت بقراءتها وأبدت ملاحظات يسيرة على بعض ما ورد فيها، سارع - وفقه الله - إلى الأخذ بأهمها بتواضع العالم وإخلاصه .

ونصيحتى للشباب المسلم وللباحثين فى علوم القرآن أن يدرسوا - بالعناية اللازمة - حلقات هذه السلسلة ويتواصلوا معها . ومع مؤلفها الفاضل .

كما أوصى «رابطة الجامعات الإسلامية» أن تعمل على إذاعتها بين الجامعات الإسلامية، وترجمتها إلى لغات الشعوب الإسلامية المتداولة، لتعميم فائدتها .

أسأل الله - تعالى - أن يجزى الأخ د . طه جابر العلوانى خير الجزاء، ويحشره تحت لواء القرآن، ويمن عليه بالعفو والعافية، ويفتح عليه فتوح العارفين ليوصل البحث والإنتاج فى هذه المجالات التى تشتد حاجة الأمة إليها . إنه سميع مجيب .

أ.د. على جمعة عبد الوهاب

مفتى جمهورية مصر العربية



## مقدمة السلسلة

الحمد لله رب العالمين ، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونصلى ونسلم  
على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأتباعه الغر الميامين ،  
وحملة الرسالة من بعده ، والداعين إلى سبيله وهديه إلى يوم الدين .  
وبعد :

فإننى ما اعتدت أن أحتفى بما أكتب ، أو أمنحه كبير اهتمام ، أو أسعى  
لنشره ، والترويج له ؛ إذ يكفينى من ذلك أن ألقى الله - تبارك وتعالى -  
وقد أجريت قلمي بما فيه نفع لعباده ، ثم هم - بعد ذلك - بالخيار إن  
شاءوا اهتموا بذلك الذى كتب ، وإن شاءوا أهملوه . وكل ما أرجوه أن  
يتقبله الله - جل شأنه - منى ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، ويجعل  
ما قلت أو كتبت قولاً سديداً ، وما قد يشتمل عليه من فكر رأياً رشيداً ،  
واجتهاداً مصيباً ، فإن كان كذلك فله الحمد والمنة ، فهو سبحانه الذى علم  
بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وهو الذى خلق الإنسان وعلمه البيان .  
وقد قيض الله - تبارك وتعالى - إخوة أعزة داوموا على الاهتمام بما

أكتب فنشروا الى مجموعة من الكتب قاربت العشرين كتاباً، ولولا لطف التدبير الإلهي - الذي جعل أفئدة هؤلاء الإخوة تهوى بعض ما أكتب أو أحاضر - لما أمكن نشر شيء من ذلك . فإننى مع كثرة المؤسسات التي انتسبت إليها، والهيئات التي تشرفت برئاستها أو عضويتها، والمجلات التي قدر لي الاتصال بها - حين أفكر في النشر أشعر بتهيّب كبير، وتردد وفير، خشية أن يكون ما أعزم نشره لم يستوف حقه من العناية، أو أنه قد يكون قليل النفع للقارئ، أو أنه غير مناسب للوقت ولكن الله - تعالى - قد قيّض لي فيمن قيضهم من الإخوة الأحبة الأخ الأستاذ محيي الدين عطية الذي كان كثير التشجيع لي على الكتابة - حين سعدت بصحبته في أمريكا وفي مصر - وعلى النشر، وإتاحة ذلك للقارئ، وكثيراً ما كان يقرأ ما أكتب ويراجعه ويعينني بملاحظات قيمة تسدّد وترشّد . وكذلك الصديق العزيز حجة الإسلام الأخ الشيخ عبد الجبار الرفاعي - أحد تلامذة الشهيد الصدر، وأحد أساتذة الحوزة الكرام - الذي أبدى اهتماماً كبيراً بما أنتج، وحملني على الاقتناع بأهميته وضرورة إتاحتها للقراء وإعطائهم فرصة الاطلاع عليه، ثم لهم - بعد ذلك - أن يحكموا له أو عليه . وقد يكون ذلك مساعداً على التصحيح والمراجعة، وإعادة النظر في ضوء ملاحظات القراء، وطرائقهم في تقييم ما يطلعون عليه . ولم يقتصر كرمه على ذلك فقط، بل أخذ - جزاء الله عنّي خير الجزاء - على عاتقه برغم انشغالاته الكثيرة إعداد كثير من إنتاجي سواء أكان بحوثاً أو مقدّمات كتب أو محاضرات ووضعها في

شكل كتب تحمل مواصفات الكتب من حيث التناسب والتناسق ، ووحدة الموضوع والتصنيف والتصحيح والفهرسة .

وبذلك أزال مخاوفى وترددى ، فخولته - جزاه الله خيراً - بذلك .  
فبادر بنشر مجموعة من إنتاجى بكتب ما كان لها أن تظهر لولا توفيق الله - تعالى - ثم جهده وتشجيعه . وقد بدأت الثقة بما أكتب - بفضل الله - تقوى عندى كلما رأيت كتاباً جديداً يصدره إخوانى ، وبخاصة أختى - حجة الإسلام - الرفاعى ، وينال الرضا من القراء .

وهذه السلسلة التى أقدم لها فى «علوم القرآن» أو فى «الدراسات القرآنية» قد اشتملت على محاولات كثيرة لتناول قضايا قرآنية . كتبت فى أوقات مختلفة لمقاربة «المنهج والمنهجية المعرفية القرآنية» . والرابط بينها وحدة موضوعها الأساسى ، وهو - «علوم القرآن» من حيث علاقتها بالمنهج والمنهجية - وإنتى لأرجو أن تساعد الباحثين فى «علوم القرآن» على سلوك سبيل ممهّد إلى حد ما « نحو المنهجية المعرفية القرآنية» . ومع كل ما بذلته من جهد فإننى أرجو من القارئ الكريم ألا يبخل على بملاحظاته ونقده ومقترحاته فإنّ الإنسان محل النسيان :

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلّها كفى المرء نبلاً أن تُعدّ معايه

والشكر موصول لأختى العزيز المهندس عادل المعلم الذى قرّر أن يتعهد هذه السلسلة ، ويخرجها بحلّة قشبية تليق بجلال القرآن وعظمته ، وإبراز منهجيّته المعرفية . سائلاً العلى القدير أن يجزل ثوابه فى الدارين ، وألا يحرمنى صادق مودته وإخائه . إنّه سميع مجيب .

## كلمة لا بد منها

### «المفبركان الباطل» لا «الفرقان الحق»<sup>(١)</sup>

فيما كنت أعد الحلقات الأولى من «الدراسات القرآنية» للنشر إذا بكتاب تافه متهالك لفقته مجموعة من «صنائع المرجفين» و«مأجورى الدجالين» فى بلاد المسلمين، لموالة الضرب على أدمغتهم، وتدمير ثقتهم بالله ثم بدينهم، ومصادر هذا الدين، وبخاصة «المصدر المنشئ للدين والكاشف عنه» القرآن المجيد الكريم المكنون.

الكتاب التافه نعته المرجفون «بالفرقان الحق» زيادة فى التضليل، وإمعاناً فى الاستهتار بالإسلام والمسلمين، ومصادر الإسلام. ويبدو أن هؤلاء المرجفين قد غرّهم هذا الحال التعيس الذى يعيشه المسلمون، ويتخبطون فيه - اليوم - فسوّل لهم طغيانهم وشياطينهم ودجاجلتهم، وصوروا لهم أنّ الطريق للإجهاد على المسلمين وإنهاء أمتهم، وتدميرهم بضربة قاضية صار سالكا، وذلك باللغو فى مصدر بناء شخصيتهم الإسلامية، وإقامة أمتهم، والتأليف بين قلوبهم، وتحقيق وحدتهم، وينبوع الهدى، ومصدر النور، وكتاب الحق والحقيقة، وحافظ رسالات النبيّن كافة.

---

(١) نشرت جريدة «الأسبوع» القاهرية فى عددها رقم «٣٧٣» بتاريخ ٣/٥/٢٠٠٤م تقريراً مفصلاً عن هذا «المفبركان الباطل» ثم أعادت نشره فى عددها الأسبوعى «٤٠٣» بتاريخ السادس من ديسمبر ٢٠٠٤م. بقلم الأستاذ مصطفى بكرى. كما أن مجموعة «المفبركان» نشرت «بالإنترنت» أجزاء أعطى لكل مجموعة تخريفات وأباطيل منها اسم «سورة». هدم الله عليه أسوارهم، ودمر عليهم بنيانهم.

## اعتداء على البشرية كلها

وما درى المرجفون أنهم بذلك لا يضرون بالمسلمين وحدهم، بل يعتدون على البشرية كلها. وذلك لأن الدين الذى جاء به المرسلون - كافة - حفظه هذا الكتاب الذى يحمل فى سورة وآياته خلاص البشرية، ومنهج إنقاذها من تدمير الضالين ومؤامرات المستكبرين، الذين يريدون ليطفئوا نور الله، ويحرموا البشرية من الحصول على «دليل خلاص» وسبيل إنقاذ يكشف ظلم الظالمين. وعدوان الطغاة المتجبرين، وأعداء الحياة لتخلو الساحة - بعد ذلك - لهم وللشياطين - لو نجحوا - خذلهم الله - للعبث بمقدرات البشرية، وإذلال شعوبها، وتدمير الحياة على الأرض، والقضاء على الإنسانية. إنهم لم يجدوا عدواً ليتخذوه عدواً غير القرآن الذى جعله الله كتاباً هادياً منيراً مشرقاً، معادلاً للكون وحرakte مستوعباً لسننه وقوانينه، مصدقاً للأنبياء كافة، وحافظاً ومهيماً على كتبهم، ومجدداً لرسالاتهم، لم يجدوا غير هذا القرآن - نبياً لا يمكن قتله، ورسولاً مقيماً تستحيل محاصرته وإبادته. لقد حرقوا التوراة من قبل: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] - وجعلوا ما أنزل الله على موسى «قراطيس يخفونها» ويبدون منها ما يناسب أهواءهم. وما أنزل الله إلا كتاباً واحداً على موسى - عليه السلام - هو التوراة، لا كتباً مختلفة متعددة متناقضة.

وحرّفوا الإنجيل ، واختلفت طوائفهم فيه فصار لكل طائفة منهم إنجيلها الخاص ، وما أنزل الله إلا إنجيلا واحداً على قلب عيسى ابن مريم - عليه السلام - حرّفوه فحرموا أنواره .

وكيف يهتدون وقد ضلوا ؟ وإذا لم يجدوا لله بينهم كلمة صادقة ثابتة هداهم شيطانهم فعمدوا إلى القرآن المجيد لعلمهم ينالون منه مثل ما نالوا من التوراة والإنجيل ، فلم لا يحاولون ، وبخاصة أن بمقدورهم - الآن - أن يستخدموا آخر ما بلغت البشرية من وسائل تقنية لترويج باطلهم ، ونشر تخريفاتهم وأضاليلهم !؟

### القرآن حافظ رسالات الله كلها

لا شك في أنهم قد اكتشفوا في القرآن الدين كله : حنيفيّة إبراهيم وصحف وتوراة موسى وألواحه ، وإنجيل عيسى الصحيح الذى لم تمتد إليه يد التحريف لأن القرآن قد حفظه ، وضمّه إليه مثل ما ضم صحف إبراهيم وموسى ودعائم وأركان رسالات الأنبياء والمرسلين كافة . إنّ القرآن قد أحبط محاولات أجدادهم وأسلافهم في تحريف التوراة والإنجيل حيث صدّق القرآن عليها وهيمن ، وأعاد كتب وصحف الأنبياء صادقة كما أنزلت على أولئك المرسلين من عهد نوح مروراً برسالة إبراهيم وموسى وعيسى حتى محمد عليهم - جميعاً - الصلاة والسلام . فلم يعد لهم أى سبيل إلى تحريفها وقد صدّق القرآن عليها وهيمن .

لقد ظن هؤلاء الأغبياء أنهم بغير كفة ما فبركوا إنما يحاربون الإسلام والمسلمين - وحدهم - وما دروا أنهم بذلك إنما يحاربون الله ورسوله كافة، فهم يحاربون بهذا نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وإسماعيل وموسى وعيسى وسائر النبيين ثم محمداً - عليهم جميعاً - أفضل الصلاة والتسليم، إنهم بذلك يزيدون في تحريف أديانهم، وحب حقائقها عن شعوب الأرض، ويغلقون الطريق أمام البشرية إلى الصحيح منها. فالقرآن هو المصدر الوحيد بين أيدي البشرية - القادر على إثبات حقائق الوجود التاريخي للأنبياء والرسل، وصحة الوجود التاريخي لأديانهم اليهودية والنصرانية - معاً - فالعلوم التي ابتكروها، وفنون النقد التي مارسوها جعلت اليهود والنصارى - وبخاصة علماء الأديان وتاريخها - يفقدون ثقتهم بالوجود التاريخي لتلك الأديان ورسالتها وأنبياؤها، ويتشككون فيها - كلها - وجعلت من تلك الأديان وكتبها ورسالتها ميادين لتجريب سبل الهدم والنقد الهادم المدمر، لا النقد البناء، وبما اقترفوا جعلوا منها مجرد أساطير استقرت في ذاكرة وخيال الشعوب تجب المحافظة عليها بحسبانها جزءاً من «المكون الثقافي الشعبي» أو المخيال الثقافي» فصاروا يعيدون صياغتها وبنائها بحسب الظروف ومتطلباتها لتلبية الحاجات النفسية لتلك الشعوب، فهي - عندهم - بمثابة الخمر والمسكرات التي قد يطلقون عليها «المشروبات الروحية» يوظفونها بالدرجات التي يريدونها، ويقررونها لتشكّل «أفيوناً للشعوب» يروج لها بعض الفاشلين من ساستهم ولا هويتهم.

## حفظ الله القرآن وعصمته له

أما «القرآن» فشأنه مختلف . فهو كتاب الله - تعالى - الذى لم يدع أمر حفظه للبشر - مثل الكتب السابقة التى أوكل الرسل الذين أنزلت عليهم حفظها إلى الحواريين والربانيين والأخبار فحرفوها ، وضيعوها : ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [ المائدة : ٤٤ ] . ربما كانت حكمة الله - تعالى - فى ذلك إظهار خصوصيتها - أعنى اختصاصها بشعوب أولئك الأنبياء ، وتاريخانيتها - أعنى اختصاصها بمرحلة تاريخية محددة ، فيما هو غير دائم ومستمر من التشريعات والمعالجات ، الخاصة بتلك الشعوب فى تلك المراحل من عمر البشرية .

إن القرآن المجيد قد حفظه الله بنفسه ، وتكفل بدوامه وبقائه واستمراره إلى يوم الدين : يحمل خطاباً عالمياً ، وشريعة تخفيف ورحمة عالمية شاملة ، وأوكل إليه الحاكمية ، وأودع فيه التصديق والهيمنة على ما سبق ، وما يأتى به الناس إلى يوم الدين ؛ ونسخ به كل ما أدخله المرجفون والمحرّفون على رسالات الأنبياء ، وحفظه بنفسه ، وحفظ به خلاصات وثوابت رسالات المرسلين : فقد حفظه من داخله بنظمه وبيانه وأسلوبه وإعجازه ، وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو ينالوا منه بتحريف أو تغيير . وحفظه من خارجه بتهيئة الملايين عبر العصور لحفظه فى الصدور

وتدوينه فى السطور ، وتداوله صحيحاً نقياً معصوماً ، لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فتناقلته الملايين جيلاً بعد جيل ، محفوظاً فى الصدور ، مدوناً فى السطور فلم يضع منه حرف واحد على مر الدهور .

وقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح ، ولمحاولات الدس بإضافة كلمات أو حذف كلمات يتحول بمقتضاها الإيجاب إلى نفي والنفي إلى إيجاب فلم ينطل ذلك على عوام المسلمين فضلاً عن قرائهم وعلمائهم .

### المحاولات الفاشلة للنيل من القرآن

وكذلك تعرض لعمليات تحريف متقن مضلل فى الطباعة لىبدو التحريف غير مقصود ، وذلك بإعجام المهمل ، أو إهمال المعجم ، فلم يفلح ذلك بالمرور ، أو الانطلاء على عامة المسلمين فضلاً عن قرائهم وعلمائهم .

أما ترجمات معانيه للغات الأخرى فقد كانت ميداناً واسعاً لتحريف معانى القرآن وتزييفها بنوايا سيئة ، أو للعجز عن السمو إلى مستوى لسانه وبيانه .

وأما محاولات تقليد ظواهر لسانه ، ومحاكاة تعبيراته فلم تتوقف عبر العصور ، ولكنها شكلت أسباب سخرية واحتقار لأصحاب تلك المحاولات أظهرت طفولتهم العقلية ، وهزيمتهم النفسية ، وسفاهة

أحلامهم، وتفاهة محاولاتهم. وما قام به هؤلاء التوافه من تأليف «مفبركانهم الباطل» لا يعدو أن يكون محاولة هزيلة تضاف إلى ملايين المحاولات السقيمة الفاشلة التي قام بها إخوان الشياطين عبر التاريخ، فما زادت المؤمنين بالقرآن إلا إيماناً مع إيمانهم، وما زادت إخوان الشياطين إلا عمى وضلالاً وأحقاداً. وبقي القرآن شامخاً يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره فلا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

### الفرضيات الخاطئة

لقد بنى مؤلفو «المفبركان الباطل» ومن وراءهم من شياطين الإنس والجن «مفبركانهم» على فرضية خاطئة متهافة، خلاصتها: أن القرآن - في نظرهم - لا يعدو أن يكون أسماء سور، وفواصل تنتهي بها الآيات، وبعد ذلك يستطيعون أن يدسُّوا بين البدايات والفواصل ما يشاءون من مضامين مقتبسة من الأسفار المنسوبة إلى موسى، والكتب المنسوبة إلى عيسى أو من مفترياتهم. فاستبدلوا بأسماء السور أسماء باطلة - ما أنزل الله بها من سلطان - زائفة خادعة اختاروها، وظنُّوا أنهم بمجرد أن يضيفوا كلمة «سورة» ستنجح الفبركة وسوف ينخدع القراء المسلمون بما افتروا وفبركوا وأن «الجرس» الذي في الفاصلة سوف يجعل الفبركة أكثر إتقاناً، ثم بعد ذلك في المضامين أحرار.

فجاءوا بمزيج عجيب لا تعرفه اليهودية ولا النصرانية، ولا الحنيفة الإبراهيمية ولا الإسلام، ولا أى دين آخر إلا دين الشيطان الرجيم الذى ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج : ٤] .  
ولو فرض أن أحداً تأثر بهذا « المفبركان » فإنه لن يجد لنفسه موقفاً فى أى مجموعة دينية من هذه المجموعات لأنه لن يكون يهودياً ولا نصرانياً، ولا حنيفاً مسلماً ولا شيئاً آخر إلا شيطاناً مريداً أو واحداً من أتباع الشيطان .

لقد ذكرنى شياطين « المفبركان » بواقعة حدثت لى مع إحدى حفيداتى حين كانت طفلة فى السادسة من عمرها . وكانت أمها تقرئها القرآن الكريم، فجعلتها تحفظ بعض السور ومنها « سورة النبأ » وبعد أن اطمأنت إلى حفظها السورة جاءت فرحة تدعونى لسماع السورة منها بلهجتها الطفولية المحببة فشرعت حفيدتى - ذات السنوات الست - تقرأ وأنا أستمع إليها فيما كنت أرتدى ملابسى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> فارتح عليها، فبقيت تردد ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولم يفتح عليها، وتعمدت أن أنتظر حتى تتذكر بنفسها، وإذا بها تقول : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ \*  
جدى يلبس البنطلون فانفجرت ضاحكاً من قولها، وعجبت لتأثر هذه الطفلة «بجرس الآيات» الذى جعلها تؤلف على الفور من واقع تشاهده عبارة تحمل ما يشبه الفواصل فى السورة : «يتساءلون \* مختلفون \* سيعلمون \* فجاءت بتلك الجملة الغريبة المنتهية «بالواو والنون» . إن

صنيع هذه الطفلة البريئة كان أكثر إتقاناً من صنيع رجال «الكهنوت» الذين فبركوا «المفبركان الباطل» .

## المفبركان الباطل لا ينتمى إلى أى دين

إنّ من يُقدَّر عليه تبنى ذلك «المفبركان الباطل» لن يبلغ مرتبة المشركين لو كان للشرك مرتبة، ولا وعى وخبرة قادة الجاهليين المشركين الذين أدركوا برغم كفرهم وشركهم وجاهليتهم أن هذا القرآن ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١] وما كان صنع بشر فإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر. فتوقفوا عن معارضته، وفضلوا على ذلك الحروب. وبذلك احترموا أنفسهم وعقول أشياءهم فلجئوا إلى التشويش عليه، والقول بأنّه ﴿سِحْرٌ يُؤْتِرُ﴾ [المدثر: ٢٤] و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، و﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]، و﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ليكسبوا الحرب النفسية والثقافية. فهذه الأقوال منهم - على تهافتها - وعدم إيمانهم بها، لكنّها أقوال قد ينخدع بها الجاهلون الذين يلاحظون آثار القرآن فى سامعيه فيتساءلون عن سر ذلك، فيقول لهم هؤلاء: ألا ترون «أنّه يفرّق بين الأب وأبنائه، والأزواج وأزواجهم»؟ وذلك شأن السحر المتعارف عليه عندهم!

## بعض محاولات أسلاف كذابي العصر

ولذلك لم يعارض القرآن عربى يحترم نفسه، ويحرص على ألا يتهم بالجهل بلغة قومه. والذين حاولوا لأمراض نفسية أمت بهم، أو جنون عظمة تملكهم، أو لغيرة وحسد هيمننا عليهم جاءوا بما يضحك الثكلى .

فحين نزلت - على سبيل المثال - سورة «الفجر» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبلغت آياتها المعجزة مسليمة الكذاب: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْفَجْرِ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ﴿٥﴾ [الفجر: ١- ٥] . . . السورة. قال الكذاب: «لقد أنزل على أنفا: «والحمام واليمام وقصور الشام . . .» وذلك لتوهم الكذاب أن إعجاز القرآن منحصر فى أسلوبه فإذا جاء بعبارات تُرصد بأسلوب معين أو تُسجَع سجعا يشبهه - فى خياله المريض - أسلوب القرآن كما تفهمه قريحته السقيمة فذلك كاف فى إظهار المعارضة؛ ولذلك انطلق فى بعض معارضاته التخريفية التى كان يدرك أنها لن تتجاوز ولن تعدو أن تكون مجرد لغو فى هذا القرآن، ومحاولة تشويش على قارئيه وسامعيه، فادعى - أيضا - أنه قد أنزل عليه» . . . لقد من الله على الحبلى! أخرج منها نسمة تسعى! من بين صفاق وحشى!»! وأوحى إليه شيطانه يوما بقلوه: «. . . الفيل ما الفيل! وما أدراك ما الفيل! له ذنب ونبيل! وخرطوم طويل!»! كما جادت قريحته يوما بقلوه: «يا ضفدع بنت ضفدعين! نقى ما تنقين! نصفك فى الماء

ونصفك فى الطين"! . كما توهم النضر بن الحارث أن سرَّ عظمة القرآن وتأثر الناس به - : يكمن فى قصصه التى تناولت مواقف تلك القرون من أنبيائهم ورسولهم ، فراح بتحريض من مشركى قريش يتتبع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ووفودها إلى البيت الحرام فى المواسم ليجلس إلى تلك الوفود التى كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يجلس إليها ، فيقص عليهم ما يعرف من أخبار فارس والروم ، ويقول لهم : «ماذا ترون فى قصص محمد عليكم وقصصى؟ إنَّ ما جاء به محمد لا يعدو أن يكون قصصًا وأساطير كالتى أقولها لكم !! بل إنَّ ما أقصُّه عليكم أكثر متعة ، وأقرب إلى زمانكم . . .» !!

هؤلاء البؤساء - جميعًا - خدعوا أنفسهم ، وأوهموا بأن مصدر تفوق القرآن وتحديده وإعجازه - هو وجه واحد ، ذلك الذى حاولوا واهمين معارضته فيه ألا وهو السجع والقصص . وحتى هذه لم يدركوا حقائقها ، ولم يرقوا المستوى فهمها . ولو كان الأمر - كما توهموا - لما احتاج العرب إلى خوض المعارك والتضحية بالأموال والأبطال من صناديدهم فى حروبهم ضد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - والقرآن ؛ إذ كان يكفيهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ويتصرفوا عليه ، ويثبتوا أنه قول بشر مثلهم .

## تحدى القرآن

لقد تحدّى القرآن الخلق - كلّهم - أن يأتيوا بمثله أو بعشر سور من مثل سورة، بل نزل إلى حدّ تحدّيهم أن يأتيوا بسورة واحدة مماثلة لسوره. وتواتر التحديّ، وتناقلته الأجيال، وتواتر عجز الذين تحدّاهم. ولم يستطع الخلق أن يقيموا دليلاً واحداً على عدم عجزهم، وما استطاعوا مع تعدّد المحاولات وتكرارها أن يعارضوه، فعمدوا إلى الحروب والقتال، وبذل المهج والأرواح ونفيس المال، لإسكات رسول الله، ومنع نور القرآن من الظهور فهل أفلحوا؟!!

يقول القاضي عياض في كتابه الشفاء: «فلم يزل يقرّعهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلّم - أشدّ التقريع، ويوبّخهم غاية التوبيخ، ويسفّه أحلامهم، ويحطّ أعلامهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن ممانئته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: «سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراء، وأساطير الأولين». وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمه الكذاب كشف عواره لجميعهم - كما ألحنا - ولما سمع الوليد ابن المغيرة قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] قال: «والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفلهُ لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بشر». - كما مر - وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابياً

سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، فقيل له فى ذلك؟ فقال: «سجدت لفصاحته» وما أفصح وأبلغ هذه الكلمات الثلاث؛ إنَّها أمر بصياغة الخطاب الناجع المؤثر الخالى من سائر عيوب الخطاب بحيث يتجاوز الأسماع إلى القلوب والبصائر والأفئدة. إنَّ «إشكاليَّة الخطاب» باتت - اليوم - إشكاليَّة عالميَّة. وهذه الكلمات الثلاث تحمل للمتدبرين المعالجة السليمة لهذه الإشكاليَّة فى سائر مستوياتها، وأركانها من مخاطب ومخاطب ورسالة أو مضمون خطاب، وكيفيَّة تقديم ذلك الخطاب. وسمع آخر قارئاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَسُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: «أشهد أن لا مخلوق يقدر على مثل هذا الكلام». ولو استعرضنا ما ورد فى تأثير القرآن المجيد فى سامعيه لحررنا فى ذلك آلاف الصفحات!! ولا نريد أن ننقل - هنا - ما سنتناوله إن شاء الله فى الحلقة الخاصة «بالإعجاز» التى سوف نتناول فيها سائر التفاصيل التى تندرج فى ذلك الموضوع.

## نظم القرآن حافظه الداخلى

إن «نظم القرآن» هو حافظه وحارسه الأمين من داخل. و«نظم القرآن» يقوم على دعائم كثيرة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها - كلَّها - فى وقت واحد، منها:

\*وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة وتنوعها مع جازة الآية واشتمالها على أدق وجوه البيان، وأجمل أنواع البديع. يقول الإمام الرازى: «إنَّ القرآن

كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه - هو أيضاً - معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته». ولعل الذين قالوا: «إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»<sup>(٢)</sup>.

فآيات القرآن الكريم المكنون، والعبارات والجمل التي يشتمل عليها، لها مستويات متعدّدة من الدلالة<sup>(٣)</sup>.

\* فلها دلالة بحسب الوضع اللغوي وتركيب الجمل، وهي مستوى من الدلالة يشاركها فيها الكلام العربي كلّه.

\* ولها دلالة وصيغ بلاغية، وهي على مستويات عليا ووجوه كثيرة؛ فكلام سيد البلغاء المتقين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو «أفصح من نطق بالضاد» ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته نحو الإمام عليّ - رضى الله عنه - قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنية وفصاحتها، لكنّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد المعجز، ولو على مستوى الجملة.

---

(٢) في كتابه البلاغى المطبوع عدة طبعات: «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» القاهرة: الآداب والمؤيد.

(٣) لعل عدم إلمام غالبية المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم فى الأخطاء التي قد يقع فيها من يعتبرون حسنى النية منهم. لأن اللغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربية، خاصة فى هذا المجال. أما سيئو النية فأولئك لهم حديث آخر.

\* وهناك «الدلالات المكنونة» أو المطوية فالقرآن الكريم وصفه المتكلم به ومنزله سبحانه بأنه ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] ففي ثنايا النص وفضاء آية يعثر المتدبرون الغواصون على اللائح والجواهر - عديمة النظر، وتتكشف مكنوناته كذلك عبر العصور عن معان تناسب تلك العصور بحيث تبدو كأنها لم تنزل إلا في تلك الفترة وعلى أهل ذلك العصر.

\* وهذه الدلالة ذات مستويات متعددة كذلك، فمنها:

\* «دلالة ما يُذكر على ما يُقدَّر - مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة/ وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير.

\* دلالة السياق<sup>(٤)</sup>، وذلك مستوى يدرك من التدبر في مواقع الجمل

(٤) السياق أمر ذو أهمية بالغة، حيث يعد «السياق» في القرآن المنتج للدلالة والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفاً جامعاً مانعاً، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتماماً شديداً بدلالة السياق فالسياق يرشد إلى تبين الجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد. . وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف. والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجوده فكره وقرينته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك. . راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٩١٤ - ١٠) وإعلام الموقعين (١/ ٣٥٠ - ٣٥١) وقد أوردت ابتنا. د. رقية العلواني تفاصيل هامة في «دلالة السياق» وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغنى الباحث في هذا المجال عن مراجعته فراجع ذلك في رسالتها القيمة « أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة. =

من الآيات والآيات من السور والسور من مجمل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها لتظهر بذلك المناسبة، وتحدد صفة الجملة وهويتها في معرفة ما إذا كانت جواباً عن سؤال، أو تعليلاً لمضمون كلام سابق، أو أنها وردت في موقع الاستدراك، أو في موقع الدليل لما سبق. وفي سائر الأحوال فإن هناك وفرة في الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أي مستوى من مستويات دلالاته الوفيرة على أنواع من المعاني لا تقع تحت حصر؛ ولذلك قال من قال: «إنه حمال أوجه»<sup>(٥)</sup>. وذلك هو الإطلاق الذي يتفرد لسان القرآن به عن كل ما سواه، فكل ما عداه داخل في دوائر النسبية. أما هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون. وفي الحديث الشريف: الذي رواه السيد الإمام أبو طالب - رضى الله عنه - في أماليه، والحافظ المحدث أبو عيسى الترمذى<sup>(٦)</sup> في جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب علي - رضى الله عنه -

---

= أمودجاً» رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ص ٢٦٠ - ٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا. د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان «دلالة السياق في القرآن» لم تطبع طبعة عامة بعد. أما السياق: فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو يربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها، واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

(٥) نقلت هذه الكلمة عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إنه قالها عندما وجه ابن عباس - رضى الله عنهما - لمحاورة الخوارج. ونقلها الشهرستاني في الملل والنحل وغيره عنه، وفي النفس منها شك!!

(٦) قد قمنا بتخريج هذا الحديث من سائر مراجعه المعروفة في الحلقة الثانية من هذه السلسلة في «الجمع بين القراءتين» فلتراجع تفاصيل ذلك هناك.

قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث. فدخلت على عليّ - رضي الله عنه - فأخبرته فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما إنني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «ألا إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١: ٢]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم». انتهى هذا الحديث الجليل<sup>(٧)</sup>. ويقول الإمام فخر الدين الرازي: (ت ٦٠٦ هـ): «... لو أردت أن أكتب في تفسير سورة الفاتحة وقرّ بعير لفعلت»<sup>(٨)</sup> وتفسيره المطبوع لسورة الفاتحة مجلد كبير يقع في (خمسين وأربعمائة) صفحة من القطع الكبير. ط التجارية في مصر عام ١٩٣٨ م.

(٧) راجع تفاصيل هامة حول هذا الحديث في: الحلقة الثانية من هذه السلسلة في «الجمع بين القراءتين».

(٨) مقدمة تفسير «مفاتيح الغيب».

إن نظم القرآن الفريد هو الذى جعله كتاباً ميسراً للذكر - كله - فهو يقرأ بيسر وسهولة، إذ هو فى مفرداته يستعمل أقرب الكلمات، وأبلغها فى الدلالة على المقصود، وأفصحها، فلا تجد فى كلماته كلمة واحدة مصابة «بتنافر الحروف» لتباعد مخارجها، أو لثقل اجتماعها فى كلمة. بحيث تثقل على اللسان ويصعب نطقها، ولن تجد فى جملة وآياته كلمات متنافرة لأى سبب من الأسباب. ولن تجد فيه لفظاً مستغلقاً، ولا لفظاً مستكرهاً، أو نايياً أو فاحشاً أو بذيئاً. يقول الإمام الرازى: «... إن المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام الحكيم، والكلام له جسم وهو اللفظ، وله روح وهو المعنى. وكما أن الإنسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى أن ينور جسمه بالنظافة كذلك الكلام، ورب كلمة حكيمة لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها»<sup>(٩)</sup>. ولدقة نظم القرآن سهل حفظه، وتيسر ترتيبه، واستطاع الناس تلاوته وتدبره وفهمه وتعقله وتذكره والتفكير فيه بيسر وسهولة، وبقطع النظر عن مستوياتهم المعرفية وطاقتهم الذهنية. فإن مما اتفقت عليه آراء الذين تناولوا إعجاز القرآن، أو خصائصه ومزاياه «تأثير القرآن فى نفوس قارئيه وسامعيه» وقدرتهم على الميز بينه وبين سواه فمن طبيعته النزول على القلب، وتحريك الوجدان والتأثير فى النفوس. فأى تغيير فى بنائه يضع حاجزاً بين النص المختلق أو المغير والفطرة والقلب والنفس والوجدان. وهذا ما لا يدركه

(٩) التحرير (١/ ١١٢) ونهاية الإيجاز للام الرازى، مصدر سابق.

المفبركون، أو يغيب عنهم، فيقعون فى حبال الشيطان، ويتوهمون القدرة على المعارضة والفبركة . .

ولدقة نظم القرآن استحال على الباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه . واستحال على الخلق أن يأتوا بمثل سورة من سوره .

### عصمة القرآن من أى نوع من التحريف

ولدقة نظمه أتمس «بالوحدة البنائية»<sup>(١٠)</sup> فى بنائه - كله - مع تعدد محاوره، وتفننه فى تناول مختلف الأغراض التى تحتاج - لو تناولها غيره - إلى آلاف المجلدات ولن تستوعب تلك الأغراض .

فهو تارة يعتمد الأسلوب القصصى من غير مشابهة للقصة فى أسلوبها وبنائها، ومن غير خروج عن الواقع والوقائع الحقيقية، ولذلك فإن من المستحيل إلحاقها أو النظر إليها بمثل قصص العهدين القديم والجديد. وتارة يوظف الوقائع التاريخية، وتارة يوجز دون أى تقصير فى تناول المعنى المراد، وأخرى يفصل دون إطناب، وأحياناً يطلق الجمل، وفى أحيان أخرى يقيدها، ويوظف الإجمال ليفتح العقول ويحملها على التفكير والتدبر. ويستعمل البيان من غير أن يشعر القارئ بأن هناك إجمالاً أو إطلاقاً، أو إيجازاً إلا إذا أنعم النظر، وأجال الفكر، وقام بالتلاوة «حق التلاوة» .

(١٠) ألفردنا «للوحدة البنائية» دراسة مستقلة سوف تنشر ضمن هذه السلسلة برقم (٣) .

وأحياناً يعتمد ضرب الأمثال وقد أبدع فى تركيبها، وحمل العقول على السعى للوصول إلى مراميها، وما رمزت إليه من غير خلط بينها وبين القصص كما هو الحال فى الكتب الدينية الأخرى .

### **إرهاصات سبقت تأليف «المضركان الباطل»**

منذ عدة عقود بدأت تظهر بعض أمور كأنها مربعات أحرف متقاطعة من الصعب تحويلها إلى كلمات ذات معنى ، لعدم وجود ما يدل عليها من أسئلة وغيرها . من تلك الأمور: الدعوة إلى توظيف الدين فى معالجة مشكلات معاصرة تحتاج إلى تجنيد طاقات الشعوب، ووضعها على صعيد واحد، وتحقيق التعاون بينها . وهذا أمر جيد لا إشكال فيه، ولا اعتراض على الدعوة إليه من حيث المبدأ . ولكن . . . . .

### **توظيف الدين أم اتخاذه مرجعية؟**

ولكن الفرق كبير بين «توظيف الدين» وبين «الرجوع إليه» أو حسبانه مرجعية يجب الرجوع إليها لمعالجة تلك المشكلات فتوظيفه يعنى استدعاءه لأداء وظيفة أو دور يظن أصحاب «القرار السياسى» أن الدين يستطيع أن يؤديه، فيستدعى بقدر ما يؤدي ذلك الدور، ثم يعاد إلى الأرفف العالية ليستقر عليها حتى حين، وذلك عندما تظهر حاجة أخرى . وهذا النوع من الرجوع لا يدل على رجوع حقيقى إلى الدين، أو

عودة صادقة أو كاذبة إليه، ولا يصنّف في إطار توبة، أو رجوع إلى الحق أو صحوة دينية، أو ما شاكل ذلك. فهو لا يعدو أن يكون إعطاء «الدين» وظيفة مؤقتة تنتهي بانقضاء الحاجة إليها. ولذلك اشترط الإسلام النية لصحة العمل، وبيّن ضرورة ارتباط الرجوع إلى الدين، أو التدين بالإخلاص: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] أى: إنه ليست هناك شائبة تشوب تديننا بديننا، فتديننا برىء من جميع الشوائب، صاف من كل ما يكدره من شرك أو خلط واختلاط. فالمقصود به وجه الله - تعالى - وأى فائدة قد تتحقق بعد ذلك، فهي ليست مقصودة وإن حدثت فهي فضل وفائدة لا غاية. فالمقصود الأساس وجه الله - وحده - وللإخلاص حقيقة وماهية وشروط وأركان لا بد من ملاحظتها للتمييز بين توظيف الدين، وبين التدين الخالص الصافى الذى لا يراد به إلا وجه الله، ولو أنّ هذا المقياس أو الميزان كان شائعاً متداولاً بين المؤمنين لما خدعوا بنوبات «تدين الظالمين»، ولأدركوا الفرق بين من يوظف الدين لتحقيق مآربه الدنيوية ومن يوظف نفسه لخدمة الدين ابتغاء مرضاة الله. وإخلاصاً لوجهه الكريم.

### خطوات تنفيذية

ويبدو أنّ هناك من أراد أن يجعل الرغبة حقيقة وواقعاً، فشكّلت لجنة تحضيرية، ووجهت الدعوة إلى رجال كثير من الأديان السائدة، ولم

تقتصر على ما يعرف «بالأديان الإبراهيمية» كما هو الحال فى الحوارات التى كثيراً ما تجرى فى الولايات المتحدة. وعندى على هذه التسمية «الأديان الإبراهيمية» ملاحظة، فهى وإن تبنّاها وردّها كثير من المسلمين فإنّها تسمية غير دقيقة، فهى تشير إلى البعد القومى فى النظر إلى الدين فارتباط «اليهود والنصارى» إن صح بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - ليس ارتباطاً دينياً. بل هو ارتباط قومى - إن سلّم - وذلك لبنوة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وكذلك إسماعيل، وتنزل آل عمران من ذريته عليه السلام. والديانتان اليهودية والنصرانية خاصتان فى بنى إسرائيل أو سلالة إسرائيل فهما «خبز الأولاد» كما نقل عن السيد المسيح «لا يعطى للكلاب» أى: لغير بنى إسرائيل. وقوله: «إنما جئت لإنقاذ الخراف الضالّة من بنى إسرائيل»، وما أوردته أسفار موسى والأنجيل كلّها، يؤكد «انحصار رسالة موسى وعيسى - عليهما السلام - فى بنى إسرائيل، فموسى - عليه السلام - جاء لتحرير شعب إسرائيل من العبودية لفرعون. وعيسى جاء لتحريرهم من الحرفية والمادية التى شاعت فيهم، وإعادتهم إلى روح الشريعة الموسوية ومقاصدها. والتعميم الذى حدث للمسيحية - بعد ذلك - إنما جاء بعد اعتناق قسطنطين للنصرانية، وتوظيفها لبناء مجد روما والإمبراطورية الرومانية.

لذلك فإنّه لا صلة بين الديانة اليهودية ولا الديانة النصرانية وبين إبراهيم إلاّ الصلة القومية فقط لا غير. أما إبراهيم نفسه فإنّه كان

﴿كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] ومثله موسى وهارون وعيسى وداود وسليمان ويحيى وغيرهم ممن قص الله في القرآن قصصهم ومن لم يقصص علينا قصصهم . ومن هنا فإن إطلاق كلمة «الأديان الإبراهيمية» على الأديان الثلاثة، ونسبة اليهودية والنصرانية إليه إطلاق غير صحيح، بل إن يعقوب نفسه: إسرائيل لم يكن يهودياً، إذ إن اليهودية نشأت ببدء نزول الوحي على سيدنا موسى . كما بدأت النصرانية بنزول الوحي على سيدنا عيسى - عليهما السلام- وكل منهما مع إبراهيم ﴿كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[آل عمران: ٦٧]

إن الأديان التي دعيت للمشاركة في ذلك اللقاء شملت الديانات الوثنية الوضعية في الصين والهند واليابان وبقية بلدان «جنوب شرقى آسيا» وكثير من المناطق الإفريقية، والمجاهل والغابات . وقد شارك بعض من يمثل بعضها في ذلك اللقاء .

أما : اليهودية فقد دُعِي وشارك من رجالها عدد جيد من كبار أساتذة الدراسات اليهودية، ومن يحملون لقب «رباي» أو حاخام من العاملين في المؤسسات الدينية اليهودية لطائفتي : «اليهود الأرثوذكس»، وهم الذين يرون في التقاليد والطقوس المتوارثة لشعبهم حقيقة اليهودية، والدرع الذي صان وحدة الشعب اليهودي ودياناته عبر التاريخ .

و «طائفة اليهود» الذين يسمون أنفسهم «بالإصلاحيين» وتسميهم الطوائف اليهودية الأخرى «بالعلمانيين» هم الذين ينادون بقبول ثقافة العصر وقبول ما تأتي به، والاستعداد للتنازل عن كثير من الموارث الدينية التي قد تضع بين اليهود وبين من يعيشون بينهم من الشعوب حواجز قد تضر بالوجود اليهودي.

ثم النصرانية في أمريكا وأوروبا وكثير من بقاع الأرض. وإن اختلفت كنائسها، وتضاربت معتقداتها؛ ولكنها - عندما تواجه الأديان الأخرى - تلاحظ مشتركاتها حتى تبدو كأنها ديانة واحدة، وما هي بواحدة.

ثم يأتي الإسلام وهو ثالث دين في العالم من الناحية العددية، تليه اليهودية من حيث العدد، لا من حيث النفوذ.

وهناك ديانات أخرى قد دعيت وشاركت، وهي خليط من بقايا ديانات موروثة، وبعض الديانات الوضعية.

## منظمة الأديان المتحدة

ويبدو أن هناك مؤسسات دينية - من «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا» [الأعراف: ٥١] كانت تسعى لتحقيق أهداف معينة لدى القائمين عليها، فقد طرحت فكرة إقامة منظمة «للأديان المتحدة» ترتبط بمنظمة الأمم المتحدة. وحين سمعت الخبر للمرة الأولى لم أدرك أن الأمر جد؛ فالفكرة لا تبدو ممكنة أو قابلة للتنفيذ، في ظل الأوضاع القائمة في عالمنا

- اليوم - وهى مشيرة للعجب والتساؤل: يا ترى كيف ستدار هذه المنظمة؟ وكيف ستكون قضية التمثيل فيها؟ وما الأهداف التى ستبناها؟ وما السياسات التى ستتبعها، وما الآليات التى ستوظفها وتستخدمها. . . هناك عشرات الأسئلة تواردت على ذهنى. ثم تناسيت الأمر، أو أنسيته وحملته على أنها قد تكون فكرة أو خاطرة أطلقها بعض الحالمين. أو المجانين أو المهلوسين!! فى بادئ الأمر.

ثم تلقيت دعوة من «لجنة تحضيرية» أشارت فى دعوتها إلى أنها ترغب فى جمع نخبة من «رجال دين» يمثلون مختلف الأديان الشائعة بين البشر اليوم للتداول حول أفضل السبل التى يمكن لرجال الدين أن يساعدوا بها فى احتواء ومعالجة مشكلات العالم المعاصر!! وكان مكان عقد الاجتماع المقرر أحد أهم «مراكز الدراسات النصرانية»، يقع ذلك المركز - الدير - قريباً من نيويورك، وعلى مرتفع من المرتفعات الجميلة القريبة منها. والمركز يقع فى مبنى قديم لكنه فخم جداً وواسع جداً، فيه جميع المرافق من مكتبة ومطاعم ومبانٍ مخصصة لإقامة الرهبان، وأفواج التنصير التى تنطلق منه إلى كل أنحاء المعمورة. وفيه اكتفاء ذاتى يغنى طلابه وأساتذته ورهبانه، وأفواج التنصير التى تنطلق منه وتعود إليه، عن الاتصال بالعالم الخارجى إلا عندما يريدون ذلك.

وقد أسكنوا المشاركين القادمين من خارج المدينة فى غرف معدة لأفواج التنصير. حيث إن تلك الأفواج تعود إلى هذا «المركز»

samenary بعد أن تقضى فترة محدّدة فى المواقع التى أرسلت إليها، ثم تعود بتقاريرها ودراساتها لتزود بها المركز، وتلقى فى الوقت نفسه من أساتذة ورهبان المركز التوجيهات الجديدة، والمحاضرات التى تساعدهم فى تجديد معلوماتهم، وإثراء أساليب عملهم، ليعودوا للممارسة مهامهم التنصيرية من جديد. ويقضى الفوج، العائد شهراً كاملاً فى عمل دءوب لتبادل المعلومات، والتزوّد بالخبرات الجديدة، ثم يعود ليأتى فوج آخر وهكذا. فهو خلية نحل لا تتوقف عن العمل ولا تفتقر. وكم تحسّرت وأنا أشاهد ذلك - كآه - على مؤسّسات الدعوة ومنظّمات الدعاة فى بعض بلادنا المسلمة التى تمارس عملها - إن أتيح لها أن تمارس شيئاً - بعشوائية وسذاجة لا تنسجم وأبسط القواعد العلمية فى هذا المجال - الذى أصبح مجالاً من أخطر مجالات المعرفة، له فنونه وعلومه، والعلوم والفنون التى ترفده بكل جديد لتجعل من الداعية عنصراً فاعلاً ومؤثراً وناجحاً فى عمله. فيخضع لتدريبات شاقة، واختبارات دقيقة ليس هذا مجال تفصيلها.

ومع كل ما لدى من مخاوف وتحفظات قررت المشاركة، وحين بدأ لقاء «القيادات الدينية» المدعوة أعلن أنّ عدد الأديان الممثلة فى هذا اللقاء أربعون ديناً لكل منها أتباع فى الولايات المتحدة. واستغربت ذلك، ولكن سرعان ما زال الاستغراب حين وزعت أوراق تقدم بعض التفاصيل: فقد عدوا «البهائيين» ديانة مستقلة و«القاديانيين» كذلك ومثلها بعض الأديان الهندية التى قد لا يتجاوز عدد أتباعها سكان قرية

هندية متوسطة . وألقيت كلمات . وأقيمت أنواع مختلفة من الصلوات .

## صلوات مشتركة

ثم أعلنت لجنة المؤتمر عن أن الجلسات ستتخللها صلوات ، فممثل كل دين عليه أن يقدم «الصلاة» الأساسية المفروضة في دينه ، ويشاركه الآخرون - بخشوع - في أدائها أو بالصمت والتأمل ، فذلك سوف يساعد على تحقيق الاحترام المتبادل !!! وما علمت أن الإصابة بالإسهال نعمة بقدر ما علمت ذلك في تلك الأيام ، فقد كنت أجد في الخروج من القاعة إلى الحمامات بسبب ذلك وسيلة حماية ووقاية من الاستماع إلى «صلوات المكاء والتصديّة» فضلاً عن المشاركة فيها والعياذ بالله . وأعلنت - المسئولين - أنني مريض ربما من الطعام ، أو الإصابة بالبرد ، لتلا يفسرّ خروجي المتكرّر بأي تفسير آخر . ولما جاء دوري لأداء الصلاة المفروضة علينا - نحن المسلمين أمام هذا الجمع - أبدت اعتراضاً على أنهم يطلبون مني الصلاة في غير وقتها المحدّد عندنا ، وهذا أمر غير مقبول ، ولكنني على استعداد إن شاءوا أن أصلي الصبح في أول وقتها غداً على أن تعد قاعة مناسبة ، ويحضر المؤتمر جميعاً ليروا ويسمعوا تلاوتي وصلاتي وسوف أشرح لهم ذلك وأترجم لهم ما أتلوه من القرآن إن شاء الله . فقال أكثرهم : إنهم سوف يكونون نياماً في هذا الوقت ، ولن يسهل عليهم الحضور . وهمهم بعضهم بأنه قد شاهد من قبل

صلوات إسلامية، فأخبرتهم بأننى سأستبدل إذن ذلك وأستخدم الوقت المخصّص لى الآن بقراءة آيات من القرآن الكريم مع ترجمتها، وقد كان . لكنّ ما خرجت به من ذلك اللّقاء أن الأمر جدّ، وأنّ القوة الموجهة لعالمنا المعاصر تعمل على توظيف الدين لخدمة أغراضها السياسية بكل ما تملك من وسائل . وأنّ المستهدف الأول من كل تلك الجهود المحمومة، والضحية الأولى لها سيكون الإسلام والمسلمين!

### درس من الأمم المتحدة

إنّ «الأمم المتحدة» منذ إنشائها شكلت سلاحًا سياسيًا مهمًا بأيدي الدول الكبرى التي تهيمن على مجلس الأمن وعلى كثير من المنظمات الفرعية والأساسية . والبلدان المسلمة يرفع بوجهها على الدوام سلاح «الشرعية الدولية» وهو مفهوم وهميٌّ خاطئٌ يعبر عن وهم كبير لم يعد يخفى على أحد . ومثله سلاح «الإجماع الدولي» والخروج على الإجماع الأُمميّ . . . . . إلخ .

واستولى على قلق وخوف شديدان : إنّ هذه المنظمة «منظمة الأديان المتحدة» لو قامت فسوف تستخدم هذه الأسلحة أو مثيلاتها في مواجهة الإسلام عقيدة وشريعة ونظم حياة، فما أسهل وأيسر أن تصدر قراراً ينال إجماع ممثلى تلك الأديان !! بمنع «الجهاد» مثلاً نظرياً وعملياً أو توصية

بتحريمه دولياً، والمناداة بوجوب إتلاف وإعدام سائر الكتب والدراسات، بل والآيات والأحاديث النبوية المتعلقة به. وبذلك يصبح مجرد الحديث عن الجهاد أو تدريسه جرماً ممنوعاً - كما هو الحال اليوم - فضلاً عن ممارسة أى نوع من أنواعه إلا جهاد النفس لقبول الواقع المر؛ لأن مجرد الإبقاء على المفهوم يعدُّ خروجاً على «الشرعية الدينية الدولية» و«الإجماع الدينى الأسمى» و... و... إلخ.

وقل مثل ذلك فى الزكاة، وسائر أركان الدين والشريعة، والعقيدة. وأنداك لا يعود القرآن المجيد مصدراً للعقيدة والشريعة، ولا السنة النبوية المشرفة مصدراً مبيناً لأن التشريع الدينى العالمى ستكون مرجعيته تلك الهيئة الدولية، فهى التى تقرر ما هو من الدين، وما هو خارج عنه، وبمقتضى ميثاقها سوف يتم تصنيف الأديان ومعتنقياها. وسائر ما يتعلق بهم وبها. وصدمت صدمة كادت تذهب بعقلى، وحدثت بعض قادة المؤسسات الدينية فى أمريكا وفى عالمنا الإسلامى فى هذا الأمر وكيف سيكون موقفهم لو وجدوا أنفسهم فى مواجهة أمر كهذا؟ ومن المؤسف أن معظمهم كان يبدى عدم اكتراث، أو يستبعد حدوث ذلك.

وبعضهم كان يردّد: إن الإسلام أقوى من كل تلك المحاولات، وإنها لن تنال منه... ولا شك فى أن الإسلام - فى ذاته - لن يزول بإذن الله، ولن تنطفى أنواره. وأن القرآن محفوظ بحفظ الله - تعالى - فلن ينالوا منه نيلاً، لكن سنة الله - تعالى - أن يقذف بالباطل

فيزهقه . ومن سننه وقوانينه التي لا تتبدّل «سنة التدافع» : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ  
النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ  
كثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] .

وهناك «سنة الاستبدال» ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا  
أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨] فالمسلمون إن لم يحملوا الحق الذي كلّفوا  
بحمله، وإعلاء شأنه، ولم ينضموا إلى صفوف حملته الذين يقذف الله  
بهم أهل الباطل فيزهقه، فقد يعلو الباطل ولو إلى حين، وقد تقع عليهم  
«سنة الاستبدال» لأنهم تخلوا عن مهمتهم، فلا بد من استبدالهم .

هذا الذي استبعده الكثيرون من قيادات المسلمين قبل سنوات قلائل  
صرنا نشاهده اليوم، ونلمس آثاره . منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر  
وسائر بلاد المسلمين تتعرض لعملية إبادة ثقافية، وتدمير هوية شاملين .

وبعد الحادى عشر من سبتمبر قررت «المنظمة الاقتصادية العالمية» فى  
«دافوس» المعروفة، أن يكون أول اجتماع لها فى مدينة نيويورك تكريماً  
للمدينة الجريحة وتعزية لها .

دعيت - أيضاً - إلى ذلك اللقاء الذى عقده «المؤسسة» فى  
نيويورك؛ وعقد لقاء مماثل أداره هذه المرة «أسقف كانتربرى» السابق .  
ولقيت فيه بعض من كانوا قد شاركوا فى اللقاء الأول . تم توزيع الملثمين  
على لجان وموائد، وطرحت عليهم أسئلة طلب منهم بيان مواقف

أديانهم منها . أو موقفهم الدينيّ منها، ومع اختلاف المضمون بين اللقاءين ، لكن اللقاءين كانا يصبّان في اتجاه واحد، وهو جعل فكرة التنسيق بين الأديان مرحلياً ممكنة، تمهيداً للعمل على إقامة «منظمة تعمل على تحقيق فكرة الأديان المتحدة» وجعلها مقبولة لدى الجميع !! وهل المسلمون اليوم يملكون شيئاً إلا أن يقبلوا . . أو يرضخوا؟

ثم علمت أن مكتباً قد فتح في «الأم المتحدة» للعمل والتنسيق معها لإيجاد «المنظمة الجديدة» ولو بعد حين - : فالأمر - إذن - قد خرج من طور الفكرة، ومحاولات تهيئة الأذهان لها إلى طور التنفيذ والتحقيق . . . وأنداك سوف تنتهي المرجعيّات التي تتنافس في بلاد المسلمين ، على ألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، وكراسي<sup>3</sup> لا قوائم لها . وسوف تنهار الأحلام الطائفية مذهبية كانت أم سياسية؛ لأنّ القوم يستهدفون «الإسلام والمسلمين معاً» لا فرق عندهم بين سنيّ أو شيعي<sup>4</sup> إماميّ أو زيديّ أو إباضيّ . ولا فرق عندهم بين صوفيّ أو سلفيّ، أو مذهبيّ أو لا مذهبيّ . ولا بين عربيّ أو كرديّ أو تركمانيّ أو فارسيّ أو هنديّ . فهؤلاء جميعاً يمثلون منابع «الإرهاب» أو أيّ صفة أخرى يتكرونها .

## «المفبركان الباطل»

فهل «المفبركان الباطل» حلقة من حلقات هذه السلسلة؟ وهل يجب علينا الوقوف عند هذه الظاهرة، والحذر منها؟ وهل أراد الذين شاركوا فى صناعته وفبركته تقديمه بين يدي المنظمة المقترحة لتتخذ منه «فرقاناً موحداً» لها، ولتجعل منه مرجعيةً دينيةً واحدة ملزمة للجميع؟! كل ذلك محتمل!!

إذ لم يعد - هناك - شىء مستبعد فى ظل قيادة عالم اليوم فكل ما كان بالأمس خيالاً أو أغرب من الخيال صار فى عالم اليوم واقعاً، أو جزءاً من الواقع!!

لقد تعرض القرآن المجيد منذ نزول «اقرأ» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى كل ما عرفته البشرية من وسائل اللغو والتشويش والدس والافتراء والكذب والتكذيب، ومحاولات المحاكاة، والتقليد، والتحريف والمجادلة فى كل شأن من شئونه، وهو صامد يتحدى الإنس والجن ويثبت عجزهم واستسلامهم، وفشلهم فى الوقوف أمامه، والاستجابة لتحديه.

## وليم جلادستون والقرآن

ولم تتوقف المحاولات حتى يومنا هذا. والذاكرة التاريخية تعود بنا إلى عهد «وليم جلادستون» رئيس وزراء بريطانيا الذى أدى أدواراً خطيرة

فى السىاسات الاستعمارية البريطانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ففى عهده جرى احتلال مصر. وهو الذى فك وحدة مصر والسودان. لقد رفع هذا الحاقد مرة بيده الملوخة بدماء المسلمين مصحفا فى مجلس العموم، وهو يخطب فى أعضائه، وقال: «لن يكون لنا فى الشرق مستقبل ما دام هذا القرآن يتلى»، ثم أشار ناحية مكة وقال: «وكعبة تزار» فكانت دعوة صريحة للغرب المعاصر بضرورة استئصال القرآن، وتدمير الكعبة. والذى يعرف عن الغرب شيئاً يستطيع أن يدرك أن كلمات مثل هؤلاء القادة تحفر لنفسها مساكن فى العقل والضمير الغربى، بحيث تظهر عند الحاجة والاستدعاء، ويعاد توظيفها، وتنفيذها بنوع غريب من «الجبرية».

## المفاهيم الخاطئة

لقد تعرض الإسلام منذ ما يزيد على قرنين من الزمان إلى عمليات تشويه، أوجدت مجموعة كبيرة من المفاهيم الخاطئة فى عقول أبنائه وفى عقول غيرهم، حيث شاعت النظرة إلى الإسلام على أنه خصم للتجديد، ونقيض للتحديث، وأنّ القرآن الكريم هو الذى أوجد هذه المواقف لدى المسلمين.

كما انتشر مفهوم مفاده أن لا فرصة للمسلمين لدخول العصر، واللّحاق بركب المتقدمين إذا لم يتخل المسلمون عن الإسلام، ويعدوا

القرآن عن مجالات التأثير فى حياتهم . وهناك مفهوم آخر قد شاع وجرى تداوله فى عالم اليوم هو إيمان المغفلين من المسلمين « بعلمانية الدول الغربية » وأنّ الغرب قد بنى تقدمه على « الفصل بين الدين والدولة »، واستقر فى أذهان النخبة المغرّبة من أبناء المسلمين منذ القرنين الماضيين أنّ الدولة « ظاهرة مدنيّة » يجب أن يكون لها استقلال مباشر عمّا أسمّوه « بالظاهرة الدينيّة ». وقد فهم أبناء المسلمين هذا بهذا الشكل الحاد، ولم يلتفتوا إلى أن الدولة فى الغرب لم تضع الدولة فى مواجهة الدين، بل قامت بتنظيم العلاقة بين الاثنين بحيث يجعل ذلك التنظيم بينهما نوعاً من التعاضد والتماسك فى تحقيق أهداف الأُمَّة . أما المقلّدون من أبناء أمتنا وجلدتنا، فقد فهموا أن المطلوب - هو التخلّى التام عن الدين ومحاصرة القرآن، كما فعل « أتاتورك » وكثير من حكام المسلمين بعد ذلك بأساليب متنوعة .

وأمام ذلك أصبح للقرآن أعداء من بين صفوف أبنائه ففقدت الأُمَّة تماسكها، وبذلك تحقّق « جلاستون » ما تمنى .

## تفريب مفهوم الأُمَّة

إنّ مفهوم « الأُمَّة » لا يمكن له أن يعيش بعيداً عن القرآن، وعن لغة القرآن، وحاكميّة القرآن، وشريعة القرآن، وقيم القرآن، والسياسات الشرعيّة للقرآن . والإرادة الإسلاميّة التى يوجد بها القرآن، والفاعليّة التى

يحققها القرآن!! والشرعية التي يمنحها القرآن للحاكمين؛ وأنى  
لحكومات المسلمين أن تكسب شعوبها وتتضامن مع مواطنيها بدون رابطة  
القرآن؟!!

إن العلاقة التي بناها القرآن بين الحاكم والمحكوم - هي علاقة الحاكم  
بالأمة المسلمة: علاقته بالناس وبالجماهير، لا بالأرض وحدها، وتلك  
هي العلاقة التي يهدى إليها القرآن.

وهي علاقة لا تتأثر بتعدد النظم، ولا بأشكالها؛ فلا تتحدد الأمة  
بأقاليم، ولا بحدود، بل تتحدد بالالتزام بالقرآن والتكلم بلغته القرآن،  
وتقوم على قيم القرآن العليا: التوحيد والتزكية وال عمران.

فإن أنا أدركنى الخوف اليوم على القرآن فليس مرد هذا الخوف أنتى لا  
أدرك أن للقرآن منزلاً يحميه، بل لأن أمة القرآن لم تعد أمة للقرآن،  
وبذلك فإن القرآن لن يحميها وقد تخلت عنه، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ  
حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] وحين  
ندرس أحوال المسلمين ندرك أن الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوه إلا  
«بالطريقة الحمارية» - أى: حملوه على ظهورهم لا فى قلوبهم  
وعقولهم ونفوسهم - لن يكون مصيرهم أحسن من مصائر أولئك الذين  
حملوا التوراة، بل سوف يكون أسوأ بكثير!!

## إنهم يعرفون أهمية القرآن وفاعليته

إنهم يعرفون خطورة هذا القرآن أكثر مما يعرفها المتسبون إلى الإسلام . إنهم يعرفون أن هذا القرآن قد بنى أمة من قوم لم يتخيل أحد أنهم سوف يكونون أمة . وبنى على أيديهم حضارة ما تزال عُرة في جبين تاريخ الحضارات . وأقام على الأرض عمراناً ما شهدته الأرض قبل القرآن ولن تشهده بعده . كل ذلك يعرفونه ، و تجهله غالبية المسلمين ، لذلك فإنهم لن يتوقفوا عن محاربة القرآن . والقوم ذوو نفس طويل ؛ ألم يقل الجنرال ألنبي في أوائل القرن الماضي : «الآن انتهت الحروب الصليبية» !!

أنا لست خائفاً على القرآن مهما طالت معركتهم ضده ، فللقرآن متكلم به ، ومنزل له يحميه ويحفظه . لكنني خائف على المسلمين ، وقد سقطت سائر دروعهم وهم يواجهون أقدارهم بصدور عارية ، ولا يلتفتون إلى أنهم قد صاروا أعداءً للغتهم العريية ، وخصوصاً لتاريخهم ، وأعداءً لأبائهم وأجدادهم ، وعشاقاً لأعدائهم وجلاديتهم ، بحيث ظهر فيهم سلمان رشدي وآياته الشيطانية ، ونسرين التي وصفت القرآن المجيد «بالعار» ، وخليل عبد الكريم الذي لم يشتم أعدى أعداء الإسلام الإسلام والنبي والقرآن أقذع من شتمه والقائمة طويلة ، فكيف نتصدى لأعداء القرآن ، وكيف نحمل رايته ، وننقذ البشرية وأنفسنا به ، هذا ما تحاوله هذه السلسلة من «دراسات قرآنية» سائلين منزل القرآن العون ، والتوفيق والتسديد . إنه سميع مجيب .



## أزمة الإنسانية

### ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

#### تمهيد

لقد أنزل الله - تعالى - القرآن المجيد على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ومنذ بدء نزول القرآن ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يبين للناس الذي اختلفوا فيه بهذا الكتاب، ويجاهدهم به جهاداً كبيراً، ليحملهم على التفكير والتذكر والتلاوة والتدبر والتعقل والترتيل ليعلم رافضوه والكافرون به أنهم كانوا كاذبين في تصوراتهم وأفكارهم، ورؤاهم ومعتقداتهم، وسلوكياتهم وتصرفاتهم وعلاقاتهم وسائر شأنهم، وليهتدى المؤمنون إلى التي هي أقوم في ذلك - كله - وفي غيره. فهو شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو «منهج» يهتدى به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام، وهو نور يخرج به الله من الظلمات إلى النور، وهو تزكية وتذكرة وبشرى ونذارة، وهو جبل الله المتين وصراطه المستقيم<sup>(١١)</sup>.

(١١) خاصة في المجالات التي عرفت بالعلوم التقليدية أو الإسلامية أو معارف الوحي أو =

## الأمة واستجلاء معانى القرآن

منذ أن لحق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرفيق الأعلى، والأمة المسلمة التي صُنعت بالقرآن على عين الله - تعالى - وبجهد رسول الله الأمين، والأسوة الحسنة التي قدّمها، والسنن التي أرسى دعائمها: والأمة تسعى جاهدة للإمام بمعانى القرآن، وإدراك مقاصده، واستجلاء مراميهِ وغاياته، والوصول إلى برد اليقين في فهمه ومعرفة تفسيره وتأويله. فأتت في سبيل ذلك علوم اللّغة العربيّة بكل فروعها، وقعدت قواعدها، ووضعت نحوها وصرفها، وأبرزت خصائصها، واستنبطت بيانها وبديعها ونثرها وأحرفها وألسنتها قبائلها، والمؤتلف والمختلف فيها لتوظيف ذلك - كلّه - في استجلاء معانى ذلك القرآن، والكشف عن ذلك البيان، والفقهِ فيه، ومعرفة أساليبه، ومحاولة العروج إلى عليائه.

كما جُمعت سنن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وآثار الصحابة وفقههم وتفسيراتهم وتأويلاتهم، وفتاوى قرائهم لبلوغ تلك الغايات، والعروج إلى سمااء تلك الآيات. فكانت حصيلة تلك الجهود

= العلوم الشرعية، وكذلك المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية. راجع بحثنا في هذه السلسلة الخاص بأسماء القرآن وصفاته من «دراسات قرآنية». إن هذه الأسماء والصفات التي سُمى الله - تعالى - بها القرآن أو وصفه بها لا ينبغي أن تؤخذ على أنها مناقب أو أوصاف هدفها بيان الفضيلة، بل على أنها محددات منهاجية منتجة لا بد من بذل العناية والجهد في تحليلها وفهمها.

أن بلغت تراكمات ذلك حد بلوغ مرحلة تأسيس وتدوين ما عرف  
بـ«العلوم الثقيلة».

## العلوم الثقيلة

لقد تتابعت الجهود في مختلف المجالات، وتنوعت الاجتهادات،  
وكثرت وتعددت المقاربات حتى تراكمت لدى الأمة مجموعة مهمة  
وكبيرة ومتنوعة من المعارف تحولت خلال القرنين الهجريين الأول  
والثاني إلى علوم وفنون ومعارف وصناعة مدوّنة<sup>(١٢)</sup>. وبقيت مدارس  
علماء الأمة تضيف عليها، وتحذف منها، وتطور فيها، وتتوسع في  
قضاياها حتى بلغت حدًا من تكامل في مشارف نهايات القرن الرابع  
الهجرى: وهنا استوت على سوقها وعُرفت مبادئها، واستقرت  
وسائلها، وتميّزت مقاصدها عن وسائلها، واستقل كل منها بشيء من  
ذلك، فكانت أحد عشر علمًا، ما بين علوم وسائلية، مثل علوم اللغة  
والمنطق، وعلوم مقاصديّة مثل علوم التفسير والحديث، والأصول والفقه  
والتوحيد، وذلك بقطع النظر عن تفرعاتها وشعبها الداخليّة، وأنواع  
المعارف التي أخذ بعضها في حجز بعض حتى تجاوز عددها في القرن  
السادس وما تلاه مائة علم وفن<sup>(١٣)</sup>.

(١٢) يذكر الذهبي في تاريخ الإسلام، ثم السيوطي في تاريخ الخلفاء أن هذه المعارف قد بدأ  
تدوينها رسمياً عام ١٤٣هـ.

(١٣) على ما في موسوعة الإمام الرازي المتوفى عام ٦٠هـ، ويراجع في ذلك بحثنا الذي لم  
ينشر عن فخر الدين الرازي: حياته، شيوخه، ومؤلفاته. وكذلك يراجع تصنيف=

فهل أوصلت هذه العلوم والفنون والمعارف الأمة إلى غاياتها في القرآن، وبغيتها منه؟

الجواب: أن كل تلك الجهود قد حوّمت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، الكريم، المكنون، وقدمت شيئاً من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإلمام «بمطلق الكتاب» إذ هيمنت نسبة البشر على ذلك «المطلق» وقيدته إلى مداركها الظرفية ومحدداتها الزمانية والمكانية، وسقوفها المعرفية، وقاسته على الكتب التي سبقت من بعض الوجوه، فأدى ذلك كله إلى بروز تفسيرات متضاربة، وتأويلات متناقضة، وفقه مختلف، وكلام متعسف، وأصول تمازجت بالفروع، وتحولت الوسائل اللغوية إلى مقاصد، بحيث صارت تتحكم أحياناً في لغة القرآن، وصارت تلك المعارف مقصودة لذاتها، أو مرجعيات بديلة يستغنى بالرجوع إليها عن الرجوع إلى القرآن إلا على سبيل الاستشهاد. واتخذت السنن النبوية - بدورها - معضدات وشواهد ساندات لما سبره السابرون<sup>(١٤)</sup>، وأصله المؤصلون لتلك المعارف والعلوم.

---

= العلوم للكندي، والفارابي، وابن حزم، وابن السامى الأصفهاني، وطاش كبرى زادة، وكذلك كتب المتأخرين أمثال أبجد العلوم ونحوها، فتلك الكتب والدراسات مفيدة في معرفة ذلك؛ وإحصاء تلك العلوم.

(١٤) يراجع البرهان لإمام المحرمين الجويني، المفقرة ١٥٣٥، وقارن بـ ١٥٤٨. وتاريخ التشريع للخضري، وكتاب عياض السلمي استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة، حيث أوضح كيف كان جمهرة الأصوليين يتخذون من أدلة الكتاب والسنة في الأعم الأغلب معضدات لما يتوصلون إليه. وكذلك المحصول بتحقيقنا في مباحث التقليد. أما =

## إطلاقية القرآن والمعارف النقلية

وإذ حُجبت بعض تلك المعارف أنوار «إطلاق القرآن» وفككت وحدته البنائية، تفككت معها «وحدة الأمة» وتفككت ائتلافها، وتناثر جمعها، وانحطت إلى مستوى التمزق الطائفي، والتشتت المذهبي. كما أن بعض هذه المعارف قد تجاوزت مع بُعد «الإطلاق» بُعد «العالمية في الخطاب القرآني» وفسرته كما لو كان خطاباً قومياً منحصراً في قوم أو محيط جغرافي محدد أو فترة تاريخية معينة مما فتح أبواباً كثيرة لطعن الطاعنين، وتحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المبطلين<sup>(١٥)</sup>.

ومع تجاوز «إطلاق الكتاب» و«عالمية الخطاب القرآني»، اختفى بُعد «حاكمية الكتاب». وكما انزوت خصائص الشريعة التي أكدتها الآيات (١٥٦ - ١٥٨) من سورة الأعراف، لم يبرز لتلك المحددات المنهاجية الأثر الذي كان ينبغي أن يظهر في تلك المعارف، وينعكس على تلك

---

=تحكيم قواعد اللغة الوضعية في لسان القرآن المعجز فستناوله إن شاء الله في الحلقة الخاصة «بعرية القرآن» من هذه السلسلة: باعتبارها حلقة من حلقات هذه السلسلة.

(١٥) يراجع كتاب القاضي الباقلاني المخطوط الانتصار لنقل القرآن الذي يكاد يستقرئ فيه شبهات أهل زمانه في هذا المجال، وكذلك مختصره المطبوع للصدر في المسمى بالنكت ولعرفة الآثار الخطيرة لتجاهل وتجاوز المحددات المنهاجية للقرآن وعدم الوعي بها تراجع دراستنا «أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية» ط القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

ودراستنا ضمن هذه السلسلة: الخطاب العالمي في القرآن قيد الإعداد. ودراسة أختنا مصطفى جابر عالمية الخطاب القرآني: دراسة تحليلية في السور المسبحات الخمس - رسالة ماجستير لم تطبع طبعاً عامة بعد.

العلوم والفنون، ويسدّد مسيرتها. وبذلك اتخذ تراثنا النقليُّ كثيراً من السمات السلبية، أو القابلة للنقد التي لا تخفى على المختصين بتلك المعارف والفنون.

### سبيل الخلاص هدف عالمي

ولتتجاوز «الأمة القطب» ثم العالم من بعدها الأزمات الفكرية والثقافية، والصراعات والتناقضات الطائفية والأمية التي تأخذ بخناق البشرية اليوم، لا بد من ابتغاء القرآن المجيد، والعروج إلى عليائه من جديد، والتعامل معه من ذات المنطلقات التي كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتعامل معه بها بحسبانه كلام الله - تبارك وتعالى - المطلق والمصدّق والمهيمن والحاكم على كل ما عداه، وبحسبانه الخطاب العالميّ النازل بالشريعة السمحاء التي نفتت ورفعت عن الناس الحرج، وأحلّت لهم الطيبات، وحرّمت عليهم الخبائث، ووضعت عنهم الإصر والأغلال التي كانت عليهم؛ فكانت رحمة للعالمين، وتخفيفاً عن الناس أجمعين إلى يوم الدين. والقرآن مهيمن على ما سبق بخاتمته، ومهيمن على ما لحق بإطلاقه وحاكميته، ومصدّق على كل ما عداه بشموله وإحاطته.

إن سبيل الخلاص الوحيد يكمن في هذه العودة الصادقة المخلصة التامة إلى القرآن المكنون، فبها يمكن أن تبدأ مسيرتنا الكبرى، وانطلاقتنا

الشاملة للخروج مما نحن فيه، ولتأسيس «البديل الحضارى الإسلاميّ العالمى» القائم على الهدى والحق والقيم العليا: التوحيد والتزكية وال عمران. إن شاء الله تعالى. وبدون تلك الرجعة الصادقة المخلصة إلى رحاب القرآن فإنه لا أمل للبشرية - كلها - ولا مُخرج لها مما تتردى فيه، ولن تزيد حالتها الفوضوية إلا سوءاً وتدهوراً، وأنداك «لن بيك ميت، ولن يفرح بمولود».

### نقطة البداية فى فهم الحالة الراهنة

إن نقطة البداية أو الانطلاق نحو الخروج من أزماتنا وبناء «البديل الحضارى الإسلاميّ العالمى» تكمن فى محاولة فهم الحالة الراهنة لأمتنا وللعالم - كته - من حولها، فهذا العالم - بكل ما فيه - صار يؤثّر فى كل شىء فى أمتنا؛ فيؤثّر فى فكرها وأنماط حياتها، وسياساتها واقتصادها، بل وطرائق تعليمها وتدريبها وتربيتها، بحيث صار يختار لها ما تقرأ وما تدرس وما تسمع وما ترى، ولسان حاله يقول ما حكى القرآن من قول فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

هنا نحتاج إلى دراسة «المأسى الإنسانية الراهنة» و «الأزمة العالمية الحالية» التى تزداد كثافة وظلاماً عبر الأيام بمنظور آخر، إذ تشخصها وتفسرها الدراسات اللاهوتية اليهودية والنصرانية، بل وبعض التوجهات

الإسلامية مضافاً إليها البوذية والكنفوشيوسية والشتتو وما إليها بأنها مأس وأزمات سببها «الانحراف عن الدين»<sup>(١٦)</sup>؛ وهذا مسلّم به من

(١٦) استمع العالم إلى الكثير من التحليلات حول «الزوال الذى حدث فى المحيط الهادى» وأطلق عليه «تسونامى» وضرب مساحات كبيرة من شواطئ جنوب شرق آسيا. وذهب ضحية ما سببه من أضرار مئآت الألوف من البشر والحيوان فضلا عن بلاين من الدولارات قدرت بها أضرار الممتلكات والأموال والزروع وما إليها. وكان أكثر المتضررين بذلك أبناء جزر إندونيسية مسلمة وجاءت التحليلات اللاهوتية التالية فى التعليق على أسباب ما حدث: فهناك تحليلات كنسية استندت إلى الأناجيل، وقالت بأن السيد المسيح «قد تنبأ بحروب واضطرابات فى العالم. وزلازل شديدة ومجاعات وأوبئة. . .» وأنه قال - وهو يهيم أذهان تلامذته لمجيئه الثانى: . . . وستظهر علامات فى الشمس والقمر والنجوم. وتكون على الأرض ضيقة على الأم الواقعة فى حيرة؛ لأن البحر والأمواج تعج وتجيش ويغمر على الناس من الرعب، ومن توقع ما سوف يجتاح المسكونة، إذ تنزعزق قوات السماوات. . . عندئذ يرون ابن الإنسان آتياً فى السحاب» انجيل لوقا تحت عنوان «نهاية العالم ومجيء المسيح ثانية» (ص ٢٥٨ و ٢٥٩). فإذا تكون وجهة النظر الكنيسة فى تفسير ما حدث: أن: كل هذا الذى يحدث إنما هو تمهيد للمجيء الثانى للسيد المسيح - وبناءً على ذلك تتوقع قيادات دينية فى أمريكا وغيرها، أن السيد المسيح قادم إلى العالم ثانية عام (٢٠٠٧) بالذات وإذا تأخر فلن يكون ذلك أبعد من ٢٠٠٩. وكل هذه الفوضى هى بعض المقدمات الضرورية لمجيئه عيسى. فنهاية الأرض ونهاية التاريخ لن تحدث إلا والنصرانية بقيادة المسيح منتصرة وسائدة فى الأرض - كلها - فالمسلمون لا حل أمامهم - والحال هذه - إلا التنصر أو الموت، واليهود الذين حاولوا صلبه، وأغروا به هذه المرة سيكفرون عن خطاياهم وينضمون إلى السيد المسيح ابن الرب - ابن الإنسان!! . . . والآخرون سوف يدخلون النصرانية، وبعد ذلك تكون الخاتمة: نهاية التاريخ وسيادة النصرانية - الأرض كلها.

وهناك تحليلات يهودية لا تختلف كثيرا إلا فى بعض التفاصيل، حيث إن لديهم «مشايا» أو «مشيح» ذا صفات خاصة يظهر ليحكم العالم منتصرا لليهود واليهودية وتسبق قيام حكومته العالمية مجموعة كوارث ومصائب. فالمصائب والكوارث - إذا - محتمة =

حيث العموم ولكن أصحاب كل دين - هنا - يعنون «بالانحراف عن

الدين» الانحراف عن دينهم هم ، وكل دين بمفهومه المستقل يَعُدُّ التدين

= الحدوث عند الفريقين . والمسلمون معرضون للتصير أو الإبادة عند النصارى والأبادة فقط لا غير عند اليهود القوميين الذين يعتبرون أنفسهم إصلاحيين .

والنصارى يؤمنون بأن السيد المسيح قد أوجب عليهم أن يمشروا بالإنجيل ويحملوه إلى جميع الأمم «مرقس» (١٥٢) (علامات نهاية الزمان) وذلك لكي يجد السيد المسيح النصرانية هي السائدة في العالم . وبالتالي فقد كان على ضحايا «تسوماني» أن يتنصروا قبل الكارثة ، أو يبقوا على ما هم فيه من إسلام أو بوذية أو وثنية فيهلكوا ، ويكونوا درساً لسواهم .

أما المسلمون فإن المؤمنين منهم بعودة السيد المسيح الثانية ، وبضرورة مجيء المهدي المنتظر قبله فإنهم لا يختلفون كثيراً مع التصورات السابقة إلا بالتوقيت وبالضحايا فبعض هؤلاء كانوا يمشرون منذ سنة ٢٠٠٠م بأن السيد المسيح لا بد أن يسبقه «المهدي المنتظر» الذي يملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، والمهدي يحكم لسبع سنوات يملا فيها الأرض عدلاً ، ثم ينزل سيدنا عيسى ويصر على الصلاة خلف المهدي ، لأن نزوله يصادف وقت صلاة الفجر بتوقيت دمشق التي سوف ينزل فيها على منارة بيضاء ، وينزل من المنارة مباشرة إلى فناء المسجد فيجد الصلاة قد أقيمت ، والإمام «المهدي» قد تقدم فإذا شعر بوجود عيسى تراجع ، وطلب من عيسى أن يؤم الصلاة فيرفض عيسى ويقول : «بعضكم لبعض أنمة»!! ويستندون في ذلك على أحاديث وأخبار وأثار تحتاج إلى التصديق القرآني والهيمنة عليها . المهم : كانت فئات من هؤلاء تبشر وتكتب النشرات بالإنترنت وسواء منذ سنة ٢٠٠٠م بأن زمن المهدي قد أطل ، وأن ظهوره يغلب أن يكون سنة (٢٠٠٤م أو ٢٠٠٥م) ، فإذا حسبنا الفارق بينه وبين نزول المسيح ، وهو سبع سنوات ، فذلك يعني أن نزول المسيح لن يكون فيما يذهب إليه هؤلاء سنة (٢٠٠٧م) - أي : إنه لن يكون في ولاية الرئيس جورج ووكس بوش الثانية ، بل ربما يكون ذلك في ولاية «نيوتغرنكج» أو أي جمهوري آخر يسيطر البساط الأحمر للسيد المسيح ولكن النصارى لا يؤمنون بما تؤمن به هذه الطائفة من المسلمين . ولذلك فإن «الجودوكريستيان» أو اليهود المسيحيين» لا يرون ما يمنع من مجيء المسيح قبل ذلك أو بعده بقليل . وأما اليهود فإن =

بالأديان الأخرى مظهراً من مظاهر الانحراف عن الدين كذلك، وأنَّ هذا الانحراف يغضب الخالق - تبارك وتعالى - فيحل على البشر ذلك الغضبُ بشكل «لعنة» في مفهوم بعض الأديان، أو في شكل بلاء

= المهم - عندهم - هو الحكم والنفوذ والسلطان . أما الدولة - عندهم - فهي قاعدة انطلاق ومقر قيادة، لكن النفوذ يجب أن يمتد ليشمل العالم - كله - فنحن نشهد - والحالة هذه - اتفاقاً لاهوتياً عجبياً هو أوحج ما يكون إلى دراسات تحليلية متعمقة تجلّي لنا ما وراء هذا التوافق العجيب على ضرورة شيوع الفتن والحروب والزلازل والمجاعات والأوبئة . كل هذه المصائب العالمية الكبرى التي يتشم من كل منها رائحة الجريمة، يجب أن تسجل ضد مجاهيل . ويجرى تواطؤ لاهوتي عجيب على التعمية على أسبابها ومقدماتها، والدور الإنساني والفعل الإنساني فيها أو إيقافها سواء أكانت حروباً أو عمليات إفساد في البيئة، وتلويث في البر والبحر والجو وثقب الأوزون، وتغيير طبيعة الأرض، والنظر إليها على أنها عدو نصارعه لنصرعه وندمره لكي يحقق الإنسان الغربي «التنمية الشاملة» ويعيش في حالة علو في الأرض . والنظر إلى الإنسان الغربي على أنه «نهاية التاريخ» من أكثر الأوهام البشرية دفعاً باتجاه الإفساد في الأرض فلا تاريخ بعده . وهو نهاية التطور الإنساني «السوبرمان» وكل ما عداه أنواع بشرية متدنية يكفي أن تقدم له الخمامات والأيدى العاملة الرخيصة، وتتيح له فرصة التمتع بالفئات الذي يسمح للدورات الصناعية والتجارية أن تستمر بالعمل .

ما الذي ساعد على بروز هذه التصورات :

إن أبرز ما يلاحظه الباحث في هذه الظاهرة من الأسباب - هو : الغيبش والاضطراب في إدراك مفهوم «اليوم الآخر» على حقيقته . وأنه اليوم الذي يبعث الله - تبارك اسمه وتعالى - الخلق للحساب والجزاء على ما قدموا في هذه الحياة الدنيا . وأن تسميته «يوم» ليس المراد منه أنه يقع داخل الزمن الذي نعيشه، لأنه مختلف تماماً عن مفهوم «اليوم» وخارج عن مفهوم «الزمن» الدنيوي فهو لا يحدث إلا بعد «تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتسجير البحار، وانفطار السماء، وتفجير المحيطات والبحار، وبعثرة القبور . كما أنه يوم كألف سنة مما تعدون . وذلك يعني أن هذا الزمن الذي نعيشه له =

وعذاب في نظر البعض الآخر. ولعل ذلك ينبيههم فيرجعوا عن ذنوبهم وخطاياهم وانحرافاتهم فتتوقف اللعنة أو تنتهي المأساة. وقد يرى البعض في كل ما يحدث تهينة لشيء أكبر سيئ أو حسن. ولا شك في أن لهذا التصور ما قد يدل عليه، ولهذا التفسير للمأساة الإنسانية ما قد يعززه، ولكن كيف يصاغ ذلك؟

= نهاية حتمية، وغاية حددها الخالق - تبارك وتعالى - تنتهي بالفناء: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٢٦) وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الحمن: ٢٦، ٢٧]. وبعد نهاية هذا الزمن تماماً بما فيه ومن فيه. يجرى البعث وتبدأ الآخرة دار الحساب. والإيمان باليوم الآخر هو الركن الثاني من أركان الإيمان. وهو منطلق وقاعدة «المسؤولية بكل أنواعها». والإيمان به من أشق الأمور وأصعبها على العقل الإنساني، والمشركون ينكرونه أشد الإنكار ويعجزون عن تصوره. والكتبايون الذين حرفوا ما أوحى إلى رسلهم وأنبياهم أدخلوا عليه من التصورات الوثنية والتخيلات ما جعله مفهوماً شديد الغموض، بالغ الاضطراب. ولا يتسع المجال - هنا - للدخول في تفاصيل ذلك. ومن المفيد لمن شاء أن يعرف اضطراب أهل الكتب في هذا أن يرجع إلى كتاب ابن حزم «الفصل في الملل والنحل»، وإرشاد الحيارى لابن القيم والجواب الصحيح لابن تيمية وإظهار الحق «الوحي للمحمدي» لرشيد رضا. وقد أعدت رسائل جامعية في عقيدة البعث والجزاء كثيرة، فليرجع إليها. لأن الذي يهمنا هنا أن نوضح القاعدة الفكرية التي انطلقت منها هذه التفسيرات اللاهوتية العجيبة!!!

فإذا عرفت أن منطلق هذه التفسيرات - هو الاضطراب في فهم «الزمن واليوم الآخر، والفرق بين الحياة الدنيا والآخرة». فذلك يعني أن مآل تصور أصحاب الاعتقادات المنحرفة أو الباطلة في اليوم الآخر أن يقولوا بلسان المقال أو الحال: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» والنتيجة الثانية: «وما نحن بمبعوثين» [الأنعام: ٢٩] «زعم الذين كفروا أن لن نعثرنا قل بلى وربى تتبعن» [التغابن: ٧]. والاعتقاد التوحيدى الصحيح باليوم الآخر: أن الحياة دار عمل وعمل وعمل، وأن الدار الآخرة - وجزءها - هي دار الجزاء والحساب والثواب والعقاب. «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» [التوبة: ١٠٥]. =

إن لهذا التفسير عدة صياغات لعل أهمها الصياغة «العمرانية». وهذه الصياغة لا يقف الباحثون المعاصرون عندها طويلاً، وإن هم فعلوا فإنهم يمسون بعض أجزائها من اقتصاد أو سياسة أو اجتماع أو تربية أو

= إذاً: فاضطراب الاعتقاد في اليوم الآخر أدى إلى القول بـ «نهاية التاريخ». وأن الجنة والنار أرضيتان فالفردوس «هو فردوس دنوبى يحدث بشكل خضوع العالم - كله - إلى مملكة واحدة بهيمتها تنتهى الثنائيات، والصراع والتدافع) فمملكة صهيون - ومملكة المخلص المسيح - ومملكة المخلص المهدي المنتظر - وفردوس الاشتراكية، واليوتوبيا التكنولوجية) وكل هذه الجنان المفتعلة جنان أرضية تحدث في الزمن «مفهومه الأرضي» الموسومة اليهودية (١/٨) مدخل نهاية التاريخ يتصرف «والنظم والحلولية (اللاهوتية منها والمادية الوضعية) نظم مغلقة تفضى إلى القول بنهاية التاريخ، ففي «وحدة الوجود اللاهوتية» يحل الإله في الطبيعة، وفي الإنسان، فيستوعبهما في ذاته، ويصبح كل شيء تعبيراً عن الإله، وتجسيداً له (ولا موجود إلا هو أو ما في الجنة إلا هو فينتهى التلويح، ويلغى الزمن ويتحول إلى دورات متكررة تعاقبية. . . وأما في «وحدة الوجود المادية» فإن الإله يحل في الإنسان والطبيعة ويستوعب هو فيهما، ويصبح لا وجود للإله إلا بظهوره من خلالهما، والإنسان والطبيعة يتمثلان الإله ويحولانه إلى مجموعة من القوانين منها «قوانين الطبيعة والمادة» و«قانون الحركة» و«قانون الصيرورة» ويصير كل شيء مسيراً بهذه القوانين. . . فمن أحاط علماً بهذه القوانين بلغ المعرفة التي تمكنه من التحكم في العالم، وفي إنهاء التاريخ الإنساني والزمان، وفي بدء التاريخ الطبيعي وتأسيس الفردوس الأرضي. (الموسوعة اليهودية) وهكذا الموضوع نفسه يفقد «الإنسان والفعل الزمن قيمته ويصبح المخلص ضرورة وحتمية في الرؤية اللاهوتية وفي الرؤية المادية. أما «الرؤية الإسلامية التوحيدية» فهي مغايرة لهذه الرؤى جميعها. لا تتسع لأى منها بحال: وبالتالي فلا بد للإنسان إذا رأى الظواهر المماثلة أن يدرك أن هنالك خلافاً ما قد حدث، فظهور التلوث والفساد في البر والبحر والجو لم يحدث بدون أسباب، وممارسات إنسانية خاطئة، ومثلها قضايا الفتن والحروب والصراعات. ونقب الأوزون والتغيرات البيئية والجوية تحدث بالتضاد مع السنن الإلهية وبما كسبت أيدي الناس. =

أخلاق، وحتى أولئك الذين يلاحظونها في مجملها أو كليتها فإنهم لا يتناولونها تناول شامل، ولا يربطون بإحكام بينها وبين الدين، وبينها وبين التوحيد بخاصة، بوصفه أساساً ومنطلقاً للإيمان وال عمران.

= وللتجارب النووية والهيدروجينية، والأسلحة الكيماوية والبيولوجية أثمان باهضة تدفعها البشرية كلها من صحتها، وسلامة بيتها. ومثل ذلك إغراق حاملات النفايات النووية في المحيطات، أو دفنها في الصحاري. فهذه - كلها - خارجة تماماً عن إطار التفسيرات اللاهوتية.

ولقاتل أن يقول: وماذا عن آيات قرآنية كريمة ربطت بين ظلم الأمم وانحرافاتهما وهلاكهما، وكذلك أحاديث صحيحة فسرت كثيراً من الآيات التي تحدثت عن مصائر الأمم والقرى التي عصت أنبياءها فأهلكها الله تعالى فإن الأنبياء كافة كانوا ينهون الأمم عن الفساد في الأرض: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]!

والقرآن يفسر بعضه بعضاً فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. مفسر بآية الروم وذلك يعني أن الإنسان الذي عاهد الله على التوحيد وتزكية نفسه وإعمار الأرض قد نقض العهد فأشرك أو الحد ففقد «البوصلة الهادية» ولم يترك نفسه، ففقد أهليته للوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف فحقق مخاوف الملائكة الذين ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نَسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وتخلي عن الأمانة التي حملها مختاراً. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فلم يؤد حقها، ولم يأبه بالكون الذي أوتمن عليه، ولم يصلح فيه، ولم يقم بما يقتضيه حق العمران. فلا بد أن يعم الفساد والشور والبلاد، ويتمرد الكون عليه، وتتقلب الطبيعة ضده. وهو أي الإنسان أولاً وأخراً المستول «بمجموعه، وبمعنى الإنسانية فيه» عن ذلك كله. =

ولذلك فقد غلبت الصياغة «اللاهوتية» فى التفسير، وفى اقتراح الخلاص لاهوتياً كذلك. والصياغة «اللاهوتية» من شأنها أن تخلط فى الكثير الغالب بين ما هو وحي إلهيٌ منزل صادر عن الإله الأزليّ الأحد-الذى أعطاه أقصى درجات الإطلاق والإحكام، وما بين نسيبة البشر من مفسّرين ومؤولين، ولغويين تتحكم بيئاتهم التاريخية فى المنتج المعرفيّ الذى يصلون إليه، أو يستنبطونه ويحملون الوحي عليه مهما حاولوا التجرّد فى مقاربتهم للنصوص الموحاة، حيث إنّ هناك الكثير من المؤثرات التى تحيط بالباحث قد لا يتنبه إليها، لكنّه لا يستطيع التحرّر منها؛ لأنّها مثبتة فى الثقافة، ومرتسخة كامنة فى التقاليد والأعراف، والمدلولات اللغوية، وما إليها، إضافة إلى تداخل الموروثات الدينية بعضها ببعض، هذه التداخلات التى تصل أحياناً حد صعوبة التمييز بينها، فالموروث المسيحى وتداخله مع الموروث اليهودي لا يحتاج من يريد إثبات ذلك التداخل إلى كبير عناء، فالعهدان القديم والجديد يمثلان لدى «البيورنتت»<sup>(١٧)</sup> المتطهرين!! مرجعاً واحداً، ولذلك فإنّهم يفضلون

= ونسبة بعض الظواهر للمخالق تعالى فى بعض الآيات والأحاديث الصحيحة - هى : لتذكير الإنسان بالحضور الإلهي باستمرار، لتلايق فى خطأ الإحساس بهيمنة الأسباب المادية على سبيل الإطلاق وعلى كل شيء، وينسى الدور الإلهي - أى : دور خالق الإنسان والكون والحياة، فيقع فى حالة الإلحاد أو الشرك أو الحلول، أو الإيمان بقدرته المطلقة، من دون الله تعالى على التصرف فى الكون.

(١٧) أولئك المتدينون الأصوليون البيض الذين هيمنت على عقولهم فى القرن السادس عشرة فكرة الاتحاد أو التداخل بين الأساسيات اليهودية والمسيحية فاعتبروا أنفسهم =

أن يطلقوا على أنفسهم: «اليهود المسيحيون». وقد حجبت هذه التداخلات الموروثة والمتعاقبة الكثير من الفوارق المنهجية بين الأديان، ومنها جوانب من تراث المسلمين الذى تداخلت معه وفيه كثير من «الإسرائيليات» بحيث أصبح ذلك جزءاً يصعب تمييزه عن التراث الإسلامى الذى بُنى حول «الخطاب القرآنى». ومع أن القرآن قد قام بنقد ذلك التراث وتمحيصه ثم التصديق عليه والهيمنة على جوانبه - كلها - لتصحيح مسار الدين عقيدة وعبادة وشريعة ونظام سلوك وأخلاقاً ومعاملات، بيد أن تفسيرات أهل التفسير وتأويلات أهل التأويل قد ضمت كثيراً من التراث الإسرائيلى لأسباب كثيرة (لا يتسع المجال لتفصيلها هنا، وقد تناولناها فى حلقات أخرى من هذه السلسلة). ولعل من أهمها توهم التشابه بين موضوعات وقضايا «الخطاب القرآنى» وموضوعات الكتب الأخرى، فأسقطت على تفسيره وتأويلاته الاتجاهات التلمودية واللاهوتية فى التفسير والتأويل، ظناً من المفسرين والمؤولين أن التشابه فى الموضوع يسوغ التشابه فى التفسير والتأويل.<sup>(١٨)</sup> فنقلوا من تفاسيرهم وتأويلاتهم كثيراً.

= جزءاً من شعب الله المختار، وجعلوا من ملك بريطانيا الذى اضطهد بعضهم، وهو «جيمس الأول» فرعوناً جديداً وبريطانيا Egipt الجديدة وأمريكا أو العالم الجديد هى أرض الميعاد الجديدة، والمحيط الذى عبروه إليها هو البحر الأحمر الذى أنفلق لعبورهم. (١٨) هناك نظرية شاعت بين المتخصصين فى دراسات «مقارنة الأديان» فى الغرب، مفادها: تأثير دين فى آخر اعتماداً على ملاحظة عامل التسلسل التاريخى وقد حاولوا بهذه=

## ضرورة بذل الجهود المعرفية لتنقية التراث

إن تجريد المعارف الدينية التي بناها علماء المسلمين حول «الخطاب القرآني» مما لحق بها، وكذلك نصوص الكتب السابقة اهتداء بالتصديق والهيمنة القرآنيين، صار يتطلب جهداً معرفياً كبيراً ومتنوعاً.

= النظرية تفسير التشابه الذي لا ينكر بين رسالات الأنبياء والمرسلين، وهذه النظرية لا نجد لها سنداً في القرآن المجيد. فالقرآن يؤكد مبدأ «وحدة الدين» و«وحدة الأنبياء» ومن البديهي أن مصدر الدين الواحد - هو الله تعالى - كما أن اصطفاء الأنبياء والمرسلين شأن اختص الله - تعالى - به وهذه الوحدة لا تعنى ما فهمه أولئك من أن الإسلام دين ملفق من اليهودية والنصرانية فقد أساءوا الفهم وحرّموا الإنصاف. ولو درسوا الإسلام من مصدره المنشئ: القرآن المجيد، ومصدره المبين السنة لأدركوا العلاقة السليمة إدراكاً صحيحاً، ولعلموا أن القرآن مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ومستوعب للثابت المشترك بين الرسالات، ومتجاوز للمتغير: إن القرآن المجيد بتصديقه على الكتاب السابقة في نزولها قد راجع ما فيها، وميز الموحى من الله منها عن الذي أضافه أهل تلك الكتب أو ضيعوه من الدين «نسوا حفظاً مما ذكروا به، والذين يحرفون الكلم عن مواضعه...» ولو أدرك علماء اللاهوت هذه الحقيقة لأحدثت في سائر علوم اللاهوت ثورة هائلة، ولاستغنوا عن كثير من النقد الذي لم يغن عنهم شيئاً، وربما وفروا جهودهم في تأسيس علم «الهرمونيوطيقا The hermeneutics» ولقادهم القرآن قيادة الرائد الذي لا يكذب أهله إلى الهدى ودين الحق الإلهي دين القيم المشتركة التي تستطيع أن توقف البشرية على صعيد هدى واحد بدلاً من البحث عن تأسيس «منظمة لوحدة الأديان» لن يكون دورها أفضل من أدوار المنظمات الدولية القاصرة. وراجع «التحرير والتنوير ٦/ ٢٢١» وفصولاً من كتاب «الظاهرة القرآنية»، لمالك بن نبي، منها «الحركة النبوية» و«الوحدة الشرعية» و«العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس»، وكتاب موريس بوكاي «الكتب المقدسة والعلم» وكتاب ابتنارقية «أثر العرف في فهم النصوص» قضايا المرأة أمثودجاً. هامش ص ١٢ دمشق: دار الفكر - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

إن هذا البناء المشوه للفكر البشريّ الدينيّ الذي لم يسلم أيّ تراث دينيّ من آثاره أدى إلى خلافات خطيرة سرعان ما تحولت إلى صراعات فكرية مذهبية وطائفية ودينية بين حملة الأديان المختلفة، وانقسامات داخل الذين يدينون بالدين الواحد، وانشطارات داخل الفرق والطوائف. فإذا أضيف إلى ذلك ما سنأتى على توضيح بعض معالمه من تفكيك «الحدائث» وما بعد الحدائث «للمسلمات الدينية»، نستطيع أن ندرك - آنذاك - أن خروج الإنسان من الأزمات، وتجاوزه للمآسى المحيطة به، وخلاصه من ذلك - كله - لم يعد من الممكن أن يكون خلاصاً دينياً لاهوتياً وبمنطلق ومنطق لاهوتيين، بل يمكن القول بأن بعض «التراث الدينيّ» قد صار معرقلاً ومعيقاً لأيّ وسائل خلاص، إن وجدت سواء على المستوى العالمى، أو على المستوى المحلى، أو الإقليمى.

١ - وإذا كانت «الصياغات اللاهوتية» لمعالجة الأزمات الإنسانية لم تعد قادرة إلا على الإضافة إليها والزيادة فيها فذلك لا يعنى أن الذين حصروا «الخلاص الإنسانى» بتحويل الإنسان نفسه إلى «مركز للكون» يتمركز حول نفسه، ويجعل منها ذاتاً ومن كل ما عداها هامشاً سيكونون أقل عجزاً عن مواجهة هذه الأزمات الإنسانية والمآسى المترتبة عليها من حملة اللاهوت والفكر المنبثق عنه.

«فالتزعة الوضعيّة» *positivism* قد حالت دون إيجاد حلول للأزمات الإنسانية. فقد قاوم الوضعيون كل ما هو غيبى بحسابه غير

مرثىً، وغير قابل للإدراك، حتى وجود الخالق رفضوه للسبب نفسه، كما رفضوا كل ما هو فوق الطبيعة أو ما يعد «ماورائياً» لا يخضع للتجربة، ولا يدرك بالحس؛ فهم يمثلون رد فعل متطرفاً ضد الاستلاب اللاهوتى أو الدينى بصفة عامة، وتحت هذا النوع من الضغط حصروا خلاص الإنسان فى دائرة ذاته، أو فى دائرة «الجدلية المادية» وما رتبوه عليها من حتميات تاريخية.

وهؤلاء بعد أن ركزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنسانى للذات الإنسانية حول نفسها، سارعوا بتبنى «الليبرالية» liberalizm إطاراً لإطلاق حيوانية الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت الليبرالية وتأصلت «بالفردية individualism»، ثم سوغت «الفردية» بالنفعية utilitarianism وأصلت «النفعية» بالنزعة «الأدائية والأدائية» أو العملية» واتخذت هذه النزعة «الآلية أو الأدائية» instrumental نهجاً لتحقيقها.

## الديمقراطية والحل

وأمام مضاعفات «إطلاق الفردية» وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصراعات برزت «الديمقراطية» democracy بحسبانها حلاً موهوماً أو مفترضاً فى مجال «تقنين الصراع» واستيعاب القوى الجديدة، التى يفرزها المجتمع، فلم تكن «الديمقراطية» وليس من طبيعتها أن تكون

حلا للأزمات الإنسانية، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشرية للدخول فى السلم كافة فى سائر جوانب نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، إذ إن مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة فى المجتمع. وهذا الاستيعاب كثيراً ما يتم بشكل وهمى!! حيث يخيل للإنسان فى الإطار الديمقراطى أنه شارك فى صنع القرار بمجرد أن أدلى بصوته، أو عبّر عن نفسه. والتعبير عن النفس شىء، والمشاركة فى صنع القرار شىء آخر. والمعطيات التى تؤثر فى صنع القرار كثيرة متعددة. ولذلك فإن كثيراً من الرؤساء يجدون أنفسهم شاءوا أم أبوا عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه فى برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون، ولا يملك متخبوهم شيئاً. لقد تحول الإنسان من خلال «الديمقراطية» إلى أداة إنتاج واستهلاك يدار - ديمقراطياً - وبرضاه التام بواسطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يستلقت النظر، وبوصفها أحزاباً سياسية أو جدهتها الشعوب للتعبير عن إرادتها. وإن كانت قد انبثقت فى بادئ الأمر عن الشركات الكبرى. وبذلك تحول «المذهب الإنسانى» الذى أقيم على «مركزية الإنسان» إلى مجرد شكل أو شعار زاد فى مأسى الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته منقطعاً عن ربّه، وعن محيطه وجذوره، فاقدا لكل ما كان يربطه بكيونته الإنسانية أو علاقاته العائليّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في «عبيثية وجودية» تلقى به إلى مجاهل «الفراغ العدمي» الذي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئاً، فهو لا يدري أكثر من أنه لا يدري إذا توافر له الطعام والجنس . ودراسة أحوال الشعوب التي يسودها هذا النظام كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرة . وإن تبجح قادتها بخلاف ذلك .

إن شخصية مثل هذه إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصية أو الكينونة الإنسانية شيء فهي مستلبة الوجود تماماً .<sup>(١٩)</sup>

## الإنسان حيوان إعلامي

لذلك فقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان «حيواناً إعلامياً» تفرّغه من مقومات كينونته، وعناصر شخصيته لتشخص له كل شيء إعلامياً بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلامية، فهو لا يشحن أو تبني شخصيته تربوياً ولا حضارياً، ولا دينياً، بل إعلامياً؛ لأنه بالإعلام يسخر لخدمة النظام والأيدى الظاهرة والخفية فيه التي يدار الإنسان بها . فهو إنسان يدور بين ساقيتي الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام . أينما توجهه - خارج ذلك - لا يأت بخير، إلا ما يفرضه الثلاثي المذكور، ومع ذلك يخيل إليه أنه شريك فعلي أو مساهم حقيقي في القرار السياسي من خلال ذلك الصوت الذي يدلي به في مواسم الانتخابات .

(١٩) نصّح بالاطلاع على كتاب ديمى طريف «الحرية والافتراء» المنشور بالقاهرة .

وحين تجرد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع الأمريكي الراهن نموذج لذلك . حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين المناقضة للديمقراطية بكل معانيها القديمة والحديثة تحت ضغط الماكينة الإعلامية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وما كان لشيء منها أن يمر لولا ذلك .

٢ - هناك الفريق الثالث الذى اختار أتباعه للخلاص الإنسانى سبيلا آخر ، حيث توهموا وجود الخلاص فى دائرة «الاحتميات التاريخية» و «المادية الجدلية» التى زعموا أنهم اكتشفوها والتى تمر من أقدية «الصراع الطبقي» وهؤلاء لم يكونوا أقل استلاباً للإنسان من الليبراليين والرأسماليين ؛ فقد جردوا الإنسان - كذلك - من كينونته ووضعوه فى إطار نمطية أحادية مبنوثة لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبر عن مصالح الشعوب فى إطار الطبقة والحزب وحدهما ، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كله وبالحضارات الإنسانية كافة ، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها ، فكلها حضارات طبقية لم تأخذ «الشفيلة» فيها نصيبا ، وكل تلك الحضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب ، والإقطاعيون ، ومن إليهم من البورجوازيين . وكل دين هو أفيون معيق لتحرير الشعوب ، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها ، وتحويل معابدها إلى ملاء ومراقص ، ومتاحف إن أمكن ، ويمكن للفنون من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها أن تلبى الحاجات النفسية

والروحية لمن يجد في نفسه حاجة لذلك . وبلا مواربة وبعد خمس وسبعين عاما أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها . وارتدت تلك «الحتميات التاريخية» و «المادية الجدلية» على أصحابها بالخسران والخذلان ، وتفكك الحزب والإمبراطورية التي أقامها ، قبل أن يبنى الحزب جنته الأرضية ليعيش فيها مجتمع الرفاهية الذي وعد الناس به . وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلى الظهور داخل الاتحاد السوفييتي المقبور العصبية القومية ، والأصول العرقية والطائفية والدينية لتعلن أن النظريات التي قامت على «المادية الجدلية» و «الحتميات التاريخية» لم تستطع استئصالها أو تغييرها لكنها كمنّت تحت سيف القهر ، وحين وجدت فرصة للظهور المجدد لم تتردد في اغتنامها لتعلن أنها كانت أقوى من تلك النظريات التي زعموا أنها نظريات خلاص .

### ماذا عن أمتنا؟

إن شعوب أمتنا في جملتها تصنّف فيما يعرف بـ«العالم الثالث» على تفاوت محدود في تلك الثالئية . والأزمات والمآسى التي تزرع تحتها تمثل ضعف ما يجتاح عالم اليوم من مأس وأزمات ، ذلك أنها تزرع تحت مشكلات عالم ما قبل الصناعة التي ترجع إلى ما يعرف بـ«التخلف» فهي أكثر شعوب العالم تخلفا بمعايير التقدم الصناعي والتقني والعلمي والتنموي . كما أنها لم تنس نصيبها من أزماتها الخاصة بها التي تحدت إليها من ماضيها وبعض الجوانب السلبية من تراثها . ولم يخفف من

وطأة تلك الأزمات ماضيها المجيد ولا كونها صانعة الحضارات الإنسانية التاريخية في وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام والصين والهند وفارس واليمن، وأنها - بعد الإسلام - قد قدمت حضارة كان لها أثرها الحميد في تسديد مسيرة البشرية، وإرساء الدعائم التي مهدت لهذه الحضارة التي صارت تعرف بـ«الغربية».

إننا نقولها وكلنا حسرة: إن أمتنا في حالة سبات عميق لم تستيقظ منه بعد، ولم تسلك للنهوض سبيلاً، ولا تزال عاجزة عن الفعل، وتعيش حالة «ردود الأفعال» الناجمة عن الصدمات التي تصنعها وتبلورها الحضارة القائمة، الأوروبية - الأمريكية، ولم ترتق بعد إلى حالة «الفعل» إذ لم تتوافر فيها شروط الفعل بعد، ففقدت الفاعلية. وقياداتها - بمستوياتها المختلفة - أفرزتها تلك الصدمات: فكانت قشرة أو فئة أو طبقة فوقية صغيرة توزعت وانتمت إلى الخيارات الغربية في الخلاص في خريطةها العامة: فكان منها الليبرالي والماركسي والرأسمالي والثوري والاشتراكي والانقلابي العسكري، أو الانقلابي الحزبي، وكذلك الدكتاتوري.

فكانت تلك الخيارات منبئةً منقطعة زادت في أزمت الأمة، فهي لم تنبع من تفاعل مبدع مع قضايا الأمة. وجل ما حدث في داخل تلك المجتمعات، وانبتق عنها، لم يكن من الفاعلية بحيث يؤدي إلى تطوير طبيعي فيها فبقيت حتى اليوم في افتقار شديد للقواعد الفكرية والاجتماعية والاقتصادية لتستند إليها وتبلور تجاربها، وتفجر طاقاتها، وتنمي أفكارها، وتنتقل بها إلى حالة الإبداع الضرورية لأي نهضة.

وقد عانت مجتمعاتنا - ولا تزال تعاني - من التناقض الحاد بين القيم الغربية التي أفرزتها الحضارة الغربية المهيمنة، وعملت النخب الفوقية الحاكمة والمساعدة لها على غرسها وتبنيها وفرضها من عل على مجتمعاتنا<sup>(٢٠)</sup> وبين مؤثرات وبقايا الأنساق الحضارية المغايرة، والموروثات الأسيدولوجية والإدراكية المتأصلة في ثقافتها، بحيث صارت ثقافة وأعرافا وتقاليد ليس من اليسير على شعب مفارقتها بالأوامر والإجراءات الفوقية، وهم يحاولون الآن استيعاب الأمة واحتواءها في إطار «العولمة» المعاصرة ليفرضوا عليها خيارات الخلاص وفق مقاييس ومواصفات هذه العولمة المعاصرة التي تقودها أمريكا، وذلك بعد أن فرضوا عليها عولمة سابقة قادها الاستعمار الأوروبي التقليدي فأدخلت إليها ليبرالية زائفة انتهت بدكتاتوريات الأحزاب والعسكر والقبائل والطوائف. وأضفت شرعية زائفة على العسف والاضطهاد بألوانه المختلفة.

## العولمة وما تعنيه

إن «العولمة» المعاصرة وإن بدت كما لو كانت عولمة اقتصادية فقط - لكنها - في الواقع تعنى - هذه المرة - الاستتباع والإلحاق بنظام عالمي له (٢٠) إن عمليات «التحديث» في مجتمعتنا كانت وسائل تدمير لبنائها التحتية، وبعض المتبقي لديها من قيم موروثه، وفشلها لم يعد يحتاج إلى دليل، وهذه - وحدها - تحتاج إلى جملة من الدراسات لتكشف عما لحق بالأمة من خسائر وأثار خطيرة نتيجة تلك العمليات التحديثية المرتجلة.

مؤسساته الدولية سياسياً واقتصادياً وأمنياً وتربوياً وفكرياً وحضارياً بل  
والمؤسسات الدينية كذلك . وقد منحت هذه المؤسسات للعولمة شرعيتها ،  
وأخذت من هذه المؤسسات تفويضاً تاماً بتغيير قيم العالم ونظمه  
وقياداته ، بل صارت هذه المؤسسات أدواتها ووسيلتها فى إحداث تلك  
التغييرات القسرية .

ولم تعد «العولمة المعاصرة» تقبل من الآخرين مجرد القبول بها ، أو  
الانفتاح عليها ، ثم التداخل الاقتصادى معها ، لكنها تصر على أن تعيد  
تشكيل أنظمة الشعوب والأمم الأخرى على صورتها ، وتلحقها بها إلحاقاً  
عضوياً ليكون «الاستتباع» عضوياً كاملاً غير منقوص لا يفرق فيه بين  
السياسى والاقتصادى والتعليمى والثقافى والفنى والحضارى . وعمليات  
الاستتباع الثقافى والحضارى لا ترحم ، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة من  
موروثات الشعوب الحضارية والمعرفية إلا قامت بتفكيكها ، وبخاصة  
تلك الموروثات التى تقرر قيادة العولمة أنها قد تشكل عقبات ربما تحول  
دون تقبل هذه الشعوب لعمليات الاندماج فى العولمة . ويتم هذا  
الاحتواء بعمليات جراحية كبيرة أو بسيطة تدعى «عمليات صراع  
الحضارات أو صدامها» ومنطق صدام الحضارات أو صراعها لا يفرق بين  
حضارة غائبة وحضارة قائمة ما دام لها بشر لا يزالون يعلنون الانتماء  
إليها . ويتضافر مع صراع أو صدام الحضارات أطروحات أخرى فرعية  
كثيرة نعايشها اليوم فى كل أنحاء العالم ، وسيؤدى ذلك كله إلى احتواء

ليبرالى لهذه الحضارات والثقافات وشعوبها، وذلك لأن منطق الليبرالية جعلها تؤمن بأنها «نهاية التاريخ»<sup>(٢١)</sup>.

## الارتداد إلى الموروث

والخطر الداهم - الآن - أن شعوبنا لم تعد تملك سوى تراثها وموروثها الحضارى والدينى المنحدر إليها من أسلافها، وهو التراث الذى صاغه الأسلاف بطرائق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخية لذلك الموروث. وهو فى سائر الأحوال له وعليه، وهنا ممكن الخطر إذ ستجد الأمة نفسها مسوقة دون اختيار للاحتماء بموروثاتها الحضارية والمذهبية والثقافية والأيدولوجية دفاعاً عن النفس، ودون تمييز أو نقد أو تجديد أو تمحيص، وهنا سوف تدخل الأمة فى حالة تعصب لموروثاتها بالحق وغيره، وهذه الحالة تجعلها فى نظر العولة أكثر تطرفاً وأصولية أو إرهابية إن أمكن هذا من وجهة نظرهم هم.

أما من وجهة نظرنا، فإن الخطر فى ذلك الارتداد غير المنظم إلى الماضى هو فى أنه سيحمل شعوبنا فى رجعتها هذه إلى الموروث على التوقف عن المراجعة وتجميد سائر حواس النقد ووسائله - إن وجدت - وتوقيف أى ممارسات تجديدية داخلية - إن وجدت - إذ لا صوت يعلو

---

(٢١) أى: أنها وصلت أعلى مستوى يمكن للإنسان أن يصله، فلن يجد التاريخ ما يسجله بعد ذلك. وراجع موسوعة اليهود واليهودية (١/٣٣٧-٣٣٨) وتأمل فى الهامش (١٧) من هذه الدراسة.

حيثُذ على صوت معركة الدفاع عن النفس : فتصبح محاولات «التجديد النوعى الداخلى» على ضعفها وقتلها بدعة من البدع أو تواطؤاً مع قيادة العولمة ، وفى أقل الأحوال تبعيَّة واستحساناً لبدائل العولمة : وتفقد الشعوب آنذاك القدرة على التمييز بين عناصر التحصُّن الداخلىّ ، وقوى الهجوم الخارجىّ فتدخل حالة «الفتنة التى تذر الحليم حيران» .

وهكذا تبدو مشكلة «الخلاص الإنسانى» أزمة مستفحلة وشاملة للمتقدم وللمتخلف ، فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته كذلك . ويستوى فى العجز عن تحقيق «الخلاص الإنسانى» الفريقان الفاعل والمنفعل .

### فهل يكون الحل علمياً؟

لاشك فى أن العلم قد تقدم كثيراً ، وتطور وارتاد أفاقاً تجاوزت الطموح الإنسانى ، وقد أصبح على مشارف اكتشاف «الكونيَّة» بكيونتها وعناصرها . ولاشك فى أن «الكونية» المهتدية تحمل الحل . لكن البيئة الغربية الأمريكية والأوروبية التى يعيش العلم ويتطور فيها وفى مؤسساتها لم تكن من الكشف عن القيمة الكونية للإنسان ، والقيمة الإلهية للوجود فى تطورها العلمى والفكرى والمعرفىّ .

والآلهوت لم يمارس تجديداً نوعياً يمكنه من المساعدة على ذلك ، والإسلام لم يكتشفه بعد إلا من خلال أنظمة مهترئة ، وأمثال بن لادن وچون محمد وصادم ومن إليهم ، ولا يزالون يتعايشون مع تاريخ

المسلمين في أثناء الحروب الصليبيَّة، وحروب الدولة العثمانيَّة والأندلس، ويقسبون الإسلام على ذلك. وحاضر العالم الإسلامي لم يتمكن ولم يسمح لأسباب كثيرة بصياغة «الخطاب الإسلامي التجديدي» ولا يملك القدرة على ذلك حالياً. وقد لا يرى كثير من الدعاة ضرورة لذلك التجديد النوعي، فلا غرابة في أن يلجأ كثير من اللاهوتيين في الغرب إلى الترويج للعودة الثانية للسيد المسيح، وقد يحدد بعضهم سنة سبع بعد الألفين موعداً لنزوله، أو ما بين سبع وتسع احتياطاً ليلتهى التاريخ (بالمخلص والأبناء الذين يحبهم). في حين يسود شعور في بعض الأوساط الإسلامية (بأن المهدي قد أطل موعده ظهوره)، وأن ذلك قد يكون عام ٢٠٠٥م<sup>(٢٢)</sup>، وهكذا تتعاضد وتتظاهر المتداخلات اللاهوتيَّة بين المتخصصين في الأديان على تدعيم وتعزيز أفكار مشتركة في الجذور وإن اختلفت في المظاهر والانعكاسات والتأثيرات.

## أين الخلاص؟

لقد تبين مما قدمنا أن العالم - كله - اليوم يبحث عن «الخلاص الكلي»، وهذا «الخلاص الكلي» يتعذر أن تأتي به القومية العنصرية أو الطبقيَّة أو الحزبيَّة أو الطائفيَّة أو الإقليميَّة أو اللاهوتيَّة المتعصبة أو

---

(٢٢) ثم ينزل المسيح بعد ذلك. ويبدو أن مؤلفي «المفبركان الباطل» أطلقوا اسم «الصفى» باعتباره التلقب لهذا «المفبركان الباطل» واسم «المهدي» باعتباره من ترجم معانيه. وتأمل هامش (١٧) في هذه الدراسة.

الليبرالية، أو الجدلية المادية والصراع الطبقي والحتميات التاريخية، أو أى طرح حصري أو أحادي ذاتي التكوين. ولا يمكن أن تأتي به «الديمقراطية» و «العولمة» فى طرحها الحالى: فالوضع العالمى الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولاً وبدائل قادرة على تقديم نفسها علمياً وعالمياً؛ بحيث لا يكون طرف يفرض، وطرف عليه أن يتقبل ويستجيب، وفى الوقت نفسه تكون قادرة على استيعاب وتجاوز فلسفات الأرض ومناهجها كافة. وليس هناك مصدر غير القرآن الكريم المحفوظ، المكنون، الهادى للتي هى أقوم يستطيع تحقيق هذين البعدين - معاً - أعنى عالمية الحلول والبدائل والمعالجات وشمولية المنهج المعرفى، وقدراته الهائلة على التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز.

فالقرآن بخصائصه - ولا مصدر سواه - يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغاتها ضمن منهجه الكونى. والقرآن - وحده - وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوز السلبى منه والاحتفاظ بالإيجابى. فالقرآن هو الأقدر على أن يعالج بمنهجية القائمة على «الجمع بين القراءتين»<sup>(٢٣)</sup> مشكلات الوجود الإنسانى وأزماته الفكرية والحضارية، ويدخل الناس كافة حالة السلم.

---

(٢٣) سنأتى على تفصيلها فى الحلقة الثانية من هذه السلسلة.

إن القرآن ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، والمطهرون هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وعهد الله لا يناله الظالمون، والسموات والأرض ما خلقا باطلا ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]، والإنسان بالغاً ما بلغ فإن خلق السموات والأرض أكبر من خلقه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وليعطينا القرآن بعضه لا بد أن نعطيه نفوسنا وعقولنا وقلوبنا كلها، ولا بد من تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحابه:

**الأول:** تجريد وتنقية معارف وحيه من سائر آثار النسبية البشرية التي أحاطت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعت له لوعيتها الذاتية، وحكمت عليه بتاريخياتها، وحكمت بمحكمه أيديولوجياتها وثقافتها وأعرافها وتقاليدها، وقاموسها اللغوي. فإذا لم نجد «آيات الذكر الحكيم» من ذلك - كله - وإذا لم نجد قراءته بنور القراءتين المذكورتين في بداية نزوله وأوائل آياته، قال تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق ١ - ٥]. وفي إطار وحدته البنائية. فإننا لن نتمكن من فهمه معرفياً، ولن نتمكن من تحليل آياته وتشويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لهذا فلن نستطيع أن نستوعب به مناهج العلوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها في إطار «الكونية»؛ لأن ذلك - وحده هو الذي سيساعدنا على إعادة بناء العقل الإنساني وصياغته انطلاقاً من: التوحيد والتزكية وال عمران صياغة كونية إلهية.

**الثانى:** الالتزام بالأمانة مع القرآن فكرياً ونفسياً فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثاً عن شواهد لأفكار بنيناها بعيداً عنه، ومبادئ وضعناها خارجه؛ لأن المطلوب أن نبدأ حركة التغيير بالقرآن من داخل النفس، فإذا تهيأت النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤها وانفعالها بالإصلاح على ما حولها، ثم تنداح دوائر الإصلاح - آنذاك - استعداداً وتهيئاً على مستوى جماعى، وذلك أقوى بكثير من مشروعات إصلاحات فكر النهضة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وإن كان فكر النهضة اجتهاداً صدر من أهله. كما أن ما ندعو إليه أعمق من تحولات الأفكار الثورية، وأكثر فاعلية من سائر التنظيمات التى قامت أو تقام على أساسها.

أما ما درج عليه المعاصرون من الإسلاميين من الاهتمام بالحشد العددي والتركيز عليه، والاتجاه نحو التجميع الكمي دون فكر قرآنى، ودون منهج قرآنى صارم كذلك، والتصرف بعيداً عن منطلقات التغيير من داخل النفس، فإن ما يفعلون لا يعدو أن يكون مشروعاً سياسياً قد يؤدى فى حالة نجاحه إلى تسلط فئة أو وصولها إلى سلطة فى قطر ما كلياً أو جزئياً، لكن ذلك لن يؤدى إلى تغيير بالقرآن لما فى النفس والمجتمع وجهاد به. والله لا يعطى عهده للظالمين، ولا للذين يريدون علواً فى الأرض وفساداً، أو أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، إذ إن مآل هؤلاء الخضوع إلى سنة «الصرف عن آيات الله» ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ

الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وأعمال هؤلاء الغافلين عن آيات الله لا قيمة لها ولا أثر في بناء العمران، أو صناعة التاريخ إلا الآثار السلبية، فهي أعمال حكم عليها بعدم الفاعلية التامة، وبفقدانها لأي آثار عمرانية إذ هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، كما أنها أعمال محكوم عليها بالخبوط.

**الثالث:** الدخول إليه بعد فهم «الأزمة» وإدراك أبعادها - كلها - والإمام بتعقيدهاتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مصدر غير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافي فيها. ولذلك فلا بد من الأطراح على أعتاب القرآن أطراح المفتقر، المدرك لتجرده من كل طول وحول للخروج من أزمته إلا بالله - تعالى - وكلماته.

**الرابع:** إدراك «الخصائص الذاتية» للأمة القطب أو للأمة المنطلق التي يراد لها أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه «العالم والعالمية» وفي الحالة التي نحن فيها فإن «المنطلق» هو الأمة المسلمة - والعرب في موقع القلب منها - ما دامت لم تخضع بعد لسنة «الاستبدال» بإيجاد أمة مسلمة بديلة عنها. وخصائص المسلم الذاتية - التي غرسها الإسلام فيه - هي الخصائص التي لا بد أن تظهر في محيط الأمة، وتتحول إلى ثقافات وأعراف سائدة وجزء أساسي من الهوية.

إنَّ خطاب الإصلاح والتغيير الذى جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاب قرآنى، فهو يتَّجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان فى كينونته الكاملة عقلاً ونفساً ووجداناً وعاطفةً. فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه فى إطار الأمة من غير انحراف نحو عرق أو طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنَّها - كلُّها - تتناهى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأى نوع من أنواع الخطاب الأخرى التى تمت صياغاتها قديماً أو حديثاً فى أمريكا وأوروبا وروسيا والصين وسواها أن تشكِّل منظومة دوافع الفاعلية لدى هذا الإنسان المسلم من جديد، لعجزها عن ملامسة خصائصه الذاتية وذلك قدره .

إن نجاح تلك الخطابات المغايرة فى تشكيل الدوافع لدى الأمم الأخرى، وإحداث التغيير فيها لا يقوم دليلاً ضد ما ذكرنا، بل قد يعزز ما ذهبنا إليه . فلكل أمة خصائصها، ومفاتيح التغيير القادرة على ملامسة هذه الخصائص . وخاصةً الأمم التى تم اصطفاؤها إلهياً لتكون نموذجاً للبشرية فى حمل الرسالة، والقيام بالأمانة، والشهادة على الأمم الأخرى .

### خطابات التغيير الأخرى

ولقد شكل خطاب التغيير الطبقيّ مجموعة الدوافع التى انتهت بالثورة الفرنسية عام (١٧٩٨)م . وتحت تأثير ذلك الخطاب الطبقيّ -

والثورات الطبقيّة التي نجمت عنه - تحققت الثورة البولشفية في روسيا عام (١٩١٧)م. وبتأثير الخطاب العرقي قامت النازية عام (١٩٣٣)م في ألمانيا. وبالخطاب اللاهوتي تأسست البابويّة. وبخطاب المزج بين اللاهوتي والعنصري العرقي تأسست دولة إسرائيل. لكن هذه الخطابات بسائر صيغها وبكل التعديلات التي أدخلت عليها لم تصنع ما استعير منها في الواقع الإسلامي وفي الواقع العربي منه بالذات ولن تصنع إلا مزيداً من التفكك والتشردم والسلبيّة والتراجع، والمراكمة على رصيد التجارب الفاشلة.

وعلى ذلك، فإننا بحاجة لأن نوقن بهذه الحقيقة، وأن نجعل منها أمراً بديهياً شائعاً في أوساط الأمة، وآلا نمل التأكيد عليها حتى تستقر في العقول والقلوب والنفوس، وتنطلق بها الألسنة والأقلام لتصبح تياراً أو روحاً يسرى في الأمة - كلّها - لتحث حالة الاستعداد للنهوض، والتهيؤ لقبول «الحل القرآني».

### **الأمة القطب بمجموعها وبخصائصها**

إن «خطاب الإصلاح القرآني» خطاب تشكل الأمة الشاهدة معالم تطبيقه وتنفيذه وتحقيقه وتثبيته في الواقع - بعد خاتم النبيين الشاهد والشهيد - الأمة الشاهدة القطب التي «لا تجتمع على ضلالة» و«لا تجتمع على خطأ» فهي ليست حزبا ولا جماعة ولا حركة ولا طائفة ولا جمعية

ولا فرقة ناجية، ولا هيئة وصاية، ولا هيئة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ولا مرجعية، ولا قاعدة، ولا هيئة كبار علماء مهما كبروا، ولا مجموعة المجالس والمجامع، ولا الطائفة المنصورة، ولا منظمة المؤتمر الإسلامى، ولا جامعة الدول العربية، بل هى الأمة - كلها - بحسانها أمة وبوصفها أمة دون افتئات أو مصادرة عليها، أو حديث عنها بالنيابة والوكالة. إنها الأمة القطب بخصائصها الذاتية ومقوماتها الفكرية، وشخصيتها المتميزة. وأرجو ألا يذهب وهم أحد إلى أننى أدعو إلى إلغاء سائر التجمعات وتسريح سائر الدعاة، وإنهاء خدمات سائر المؤسسات، (حتى ينتشر الوعي لدى الأمة - كلها - بفضل قراءة القرآن المجيد لتقوم قومة رجل واحد فتحدث النهضة، ويتحقق التغيير) لكننى قصدت أنه لا بد لخطاب الإصلاح والتغيير لهذه الأمة أن يلاحظ خصائص التكوين عندما يصوغ خطاب التجديد والتغيير.

## فما أهم خصائص التكوين؟

إن القرآن المجيد قد أخذ بأيدينا إلى أهم خصائص التكوين وتتلخص بـ«وحدة المرجعية» (إيجاد الأمة الواحدة المتألفة القلوب) و«الالتزام الجماعى المؤكد الصارم» بهذين الأمرين «وإيجاد آلية لاستمرار ذلك»، وهى: «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» بشروطهما ومواصفاتهما ومستوياتهما. قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ  
 لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا  
 وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل  
 عمران: ١٠٣ - ١٠٥]. فالأمر بالاعتصام بحبل الله جميعاً، ونبذ التفرق  
 والاختلاف جميعاً خطاب شامل للأمة - كلها - لا يستثنى فرداً منها  
 بحال، وفي ذلك تحديد للمرجعية الواحدة من ناحية، وبناء لضمير  
 الالتزام الجمعيّ الشامل - من ناحية أخرى - بجميع قضايا الأمة وفي  
 ضمائر أبنائها كافة، وتأكيد على ضرورة الإرادة الجماعية الشاملة في  
 قلوب أبنائها جميعاً لتكون أمة، ولتبقى أو تستمر أمة قائمة، وهذه  
 الأمور الثلاثة: (تحديد المرجعية بالقرآن، والتأكيد الدائم على ضرورة  
 الالتزام بها، وبناء ضمير الالتزام الجمعيّ في ضمائر أبنائها كافة، وإيجاد  
 وترسيخ الإرادة الجماعية الشاملة في قلوب أبناء الأمة كافة وصيانة ذلك -  
 كله - بألية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تؤدي - كلها - إلى تحديد  
 الرابطة بين أبناء الأمة - كلها - ألا وهي الأخوة، وبيان الوسيلة التي  
 أدت إلى ذلك وهي «التأليف بين القلوب» والتأكيد على أن أيّ ضعف أو  
 انحراف أو إخلال بمفهوم الأخوة وهيئته على العلاقة بين المسلمين، أو  
 تجاوز وسيلته الأساس ودعامته الكبرى ألا وهي «التأليف بين القلوب»  
 يعنى إنهاء الروابط داخل الأمة، والدخول في حالة العداوة وبلوغ شفا  
 حفرة من النار ثم السقوط فيها والعياذ بالله .

## فما الذى يستلزمه ذلك؟

إن ذلك يستلزم أن تتمخض الأركان التى ذكرنا «وحدة المرجعية» وتأکید «الالتزام الجمعی» بقضايا الأمة، وتشكيل الضمير المتابع لذلك، و«تحقیق الإرادة الجمعیة» وتحقیق «التألیف بین القلوب» للوصول إلى حالة «الأخوة» تتمخض من أن تنبثق أمة من الأمة، بحيث تكون بعد ذلك الأمة كلها، وتضع فى مقدمة أولوياتها بعد أن تتحقق هذه الأركان فيها، أن تبلغ بالأمة - كلها - حالة تجعلها قادرة على ممارسة دورها فى الخلافة والشهود والعمران آنذاك.

فهذه الأمة تتحرك بالإرادة الجمعیة للأمة، لأنها منها، فبقى الأمة هى الكيان الأساس، لا الحزب ولا التنظيم ولا الجماعة ولا الطائفة، ولا المذهب ولا الإقليم. ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فهذه الأمة الخيرة، المتحلية بكل هذه الصفات جزء من الأمة، ملتصق بها، تكونه الأمة طليعة لها، للتفاعل معها، ومن التزامها بخصائص الأمة. تستمد شرعيتها ووجودها، فهى مثل أعضاء الجسم الواحد أو كريات الدم تؤدى أدوارها فى التحام تام بالجسم، ودون انفصال عنه: فالجسم - كله - هو الذى يحمل لها الحياة، ويمدها بالحوية، وهى تؤدى أدوارها فيه، ومن خلال ما ينتجه ذلك الجسم لها، فهما شىء واحد لا انفصام لهما.

وهذه الأمة التي تتكون منّا بإرادتنا الجمعيّة، وباختيارنا الحر تتجسد أحياناً فى شكل نظام، وأحياناً فى شكل تنظيم وآياً كان الأمر فليس من حق النظام، أو التنظيم أن يتكون خارج الأمة، أو ينفصل عنها قبل التكوين أو بعده، أو يتجاهل آياً من الأركان التي جاءت بها آية «الاعتصام بحبل الله»؛ فإن هو فعل فسيخلق حالة عداء ويؤدى إلى التفرق والاختلاف، وكل ما يخلق آياً من هاتين الحالتين مرفوض ومردود، ولن يؤدى إلى تحقيق الهدف.

### الأمة بين جور النظم وافتيات التنظيمات

من المؤسف أن نرى أمتنا بعد أن طال عليها الأمد، وغابت عنها هذه القواعد تعيش بين حالتى استلاب قد أوكلتها إلى نظام يستلبها ويستعبدها ويستبد بها، أو إلى تنظيم يفتات عليها، ويمزقها ويفرض نفسه عليها ناطقاً باسمها أحياناً أو ممثلاً لها أحياناً، دون أى تشاور أو رجوع إليها؛ فكأنها تتذبذب بين جور النظام واستبداده، وبين تفرقة التنظيم وتصنيفه وتمزيقه لها، واستعلائه عليها، فتستجير بأحدهما من الآخر ولسان حالها يقول:

والمستجير بعمر و عند كبرته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولا خروج من هذه الدوامة إلا بأن يكون كل من النظام والتنظيم متلاحماً مع الأمة، ملتصقاً بها، وليكتسب كل منهما الفاعليّة والشرعيّة

يجب ويتحتم أن يكون أمة في داخل الأمة، وأمة من ذات الأمة، لا يوجد أيُّ منهما خارجها، ولا يتخلق بمعزل عنها، ولا يتجاوز تاريخها ومكوناته، ولا يتجاهل «جدلية» ذلك التاريخ وهو يتحرك لتغيير ما فيها وإصلاح أحوالها، بأن ينصرف إلى تكريس النظام وحمايته فيتحول إلى مستلب للأمة بالنظام، أو يتجه إلى الحزب أو إلى التنظيم فيتحول إلى مفرق لها، فارض نفسه عليها، فيشير العداة في صفوفها، والاختلاف والفرق بين أبنائها. ويوجد حالات الصراع الداخلى بين فصائلها.

## منكم لا عليكم

إن الأنظمة المستبدة - فى مختلف أقطار أمتنا المسلمة وأقاليمها لم تأخذ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران] فتحولت إلى «عليكم» فصارت متسلطة علينا، مستبدة فى شئوننا مفتاة علينا، مستلبة لإرادتنا تستمد شرعية وجودها من خارجنا، تسوغ ذلك لنفسها بشتى المسوغات، ومنها: قصور الأمة، أو عجزها عن إدراك مصالحها!! وما من أمة مجتمعة إلا وهى أعقل وأحكم من أهل الاستبداد فيها مهما بلغت درجات تعلمهم أو ذكائهم أو تدريبهم. فالزعيم المستبد يمكن أن يضل ويشقى ويخطئ ويجهل، أما الأمة إذا اجتمعت كلمتها، وتمتع أبنائها بحقوقهم، واستردوا إنسانيتهم ومارسوا حرياتهم فمهما أخطأت فلن تجتمع على الخطأ، ومهما انحرفت فلن تجتمع على ضلالة.

لكن قيادات النظم المتجاهلة للمراد بـ «منكم» والمتسلطة «عليكم» وكذلك التنظيمات ترى فى الأمة أسوأ ما فيها فتستعلى عليها، وتستكبر، ثم تستلب إرادتها، وتستمرى الطغيان عليها فتصبح الأمة - آنذاك - غشاء كغشاء السيل تلعن حاكميها ويلعنونها ولا يأتى أى منهما بخير وإنما توجه. ويستعين كل منهما على الآخر، ويستقوى عليه بالآخرين.

### الاستبداد لا يأتى بخير

إن «العبودية» رتبة شرف حين تختص بالله - تعالى - أما حين تصرف إلى غيره فهي مذلة وهوان وصغار فهي - آنذاك - أحط درك ينحدر الإنسان فيه.

ولقد هفا «حكيم الشرق» جمال الدين الأفغانى - رحمه الله - وهفوات الكبار على أقدارهم، وذلك حين قال: «إن هذه الأمة المسلمة» لا تصلح إلا بمستبد عادل» ولو تأمل رحمه الله قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطْفَىٰ ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَفْتَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] لأدرك أن «العدل» و «الاستبداد» نقيضان لا يجتمعان فى رجل أو نظام، أو تنظيم؛ فإما عدل وشورى فينتفى الاستبداد، وإما استبداد واستعلاء، فنتفى الشورى، ويختفى العدل. وتظهر عبودية الإنسان للإنسان. والأمة التى تطاوع على ذلك أمة ناكثة لعهداها، متراجعة عن قولها «بلى شهدنا»

ناقضة لعروة من أهم عرى «التوحيد» ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ومستقبلة من مهمة الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهي خاتمة للأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وراسبة في اختبار الابتلاء ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. ومتخلية عن عبادة الله إلى عبادة العباد ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٣-٧٦].

فكل هذه الانحرافات ثمرة لأزمة تصيب الأمة حين تتقبل حالة الاستلاب الطاغوتي، سواء أكان من نظام أو تنظيم فهي بكماء خرساء أينما توجه لا تأتي بخير، كل على أولئك الذين استلبوها، غشاء كغشاء السيل.

لقد توهم فرعون أنه إله حين طغى واستمرأ الطغيان، وطاوعته جماهير شعبه المخدوعة، المستذلة المخدلة إلى الأرض، فلبوا نداءه، فحشروهم، وإذ رأى كل تلك الجماهير الأصفار الصغار حوله انتشى، وأسكره خضوعها «... فانطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاوله، المليئة بالغرور والجهالة: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره وإذعانها، وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطى له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها! فيجبر! وتحنى له رؤوسها فيستعلى! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى؛ وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم، فالطاغية - وهو فرد - لا يمكن أن يكون أقوى من الملايين والألوف لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها. وكل فرد فيها هو كفاء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً! وهو لا يملك لنفسه شيئاً.

وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربّها، وتؤمن به، وتوحده، وتأبى أن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً. (٢٤).

روى لنا وزير أوقاف أحد المستبدين أن سيده سأله مرة إن كان ممن تجب عليهم الزكاة؟ وبعد سلسلة من الألقاب قال له وزيره: نعم: تجب الزكاة على من يملكون النصاب، وسيادتكم منهم. فأجاب السيد الرئيس:- ألا ترى أنني أطعم الشعب كله، وأوفر له الدواء والكساء والتعليم والنقل؟ ألا يعد هذا أكثر من الزكاة بالنسبة لى؟ فبهت الوزير ودعا للسيد الرئيس وانصرف. وهذا الرئيس كان قبل الرئاسة معدماً عالة، ومن أسرة معدمة جعل رزقه مربوطاً بمسدسه يبتز به الضعفاء ويسلبهم أموالهم، إلى أن بدأ التدرج فى سلالم الحزب والسلطة فاستلب الحزب واغتصب السلطة فأصبح مال الشعب كله ماله الشخصى، وكأته رأى فى شعبه أولئك الضعفاء الذين كان يسلب ما معهم من نقود، ويضربهم وينصرف بما معهم على أنه ماله وحلاله مادام آل إليه ولو بالاغتصاب!!

أفيستغرب - بعد ذلك - أن ينهار هذا الشعب المستلب أمام أعدائه  
ولسان حاله يقول ما قاله الشاعر الجاهلى:

---

(٢٤) فى ظلال القرآن: (٦/٣٨١٥) تفسير سورة النازعات.

لا أذود الطير عن شجرٍ . . . قد بلوت المر من ثمره

وحين تفقد الأمة ثقتها بالنظام، وتنهار الجسور بينها وبينه، يبرز فيها الاستعداد لقبول البدائل إن وجدت. وهنا يأتي التنظيم، وي طرح نفسه بديلاً بين يدي الشعب، وي طرح من الشعارات ما يخلب الألباب، ويسوق انتقادات كثيرة للنظام، ويؤكد بأنه «منكم وإليكم»، فإذا ما منحت الأمة التنظيم شيئاً من ثقتها سرعان ما تبرز روح «عليكم» للتعبير عن التسلُّط والوصاية والامتياز وروح الاستعلاء، وكأن صفات النظام تلبس بالتنظيم، بل تنمو فيه. وهنا ينبّه القرآن الكريم إلى هذه الحالة فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٨].

ولتدخل الأمة في حالة السلم لا بد لها من تجاوز - أي أن تتجاوز كل ما يشير عداً بين أبنائها سابقاً أو لاحقاً، وكل ما يشير اختلافاً بين فصائلها. فالتنظيم الذي لا تتجسد فيه روح «منكم» بكل المعاني التي ذكرناها فإنه سيكون مصدر اختلاف، ومصدر تفرُّق، يسوغ لنفسه الاستعلاء والافتئات على الأمة، وقد يلوى أعناق النصوص، وينحرف

بالخطاب ليدعم سياساته المنبثقة من روح «عليكم» وتصبح الأمة أو الشعوب بين مطرقة استلاب النظم وسندان استلاب التنظيم.

### ظاهرة الصراع العربي الصهيوني ودلالاتها

إن العالم اليوم يلاحظ ظاهرة الصراع العربي - الإسرائيلي وما يجرى في فلسطين من قتل وتشريد وتدمير، ويتخبط الناس في تفسير هذه الظاهرة خبط عشواء، ويعطونها من التفسيرات ما يشاءون، ولها عندنا من هدى القرآن ما يمكن أن يفسرها أو على الأقل يفتح لتفسيرها طريقاً يبساً، يتلخص في أن الله - تبارك تعالى - قد حمل بنى إسرائيل التوراة فأبوا أن يحملوها، فقال فيهم تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. وهؤلاء - اليوم - يواجهون أمة أخرى حملت القرآن فلم تحمله كذلك، وفي الآية الثانية من سورة المنافقون يقول تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٢ - ٣].

فهذه الأمة المسلمة المسكينة بلغت ذات المستوى الذي بلغه شعب بنى إسرائيل حيث حملت الأمة المسلمة القرآن فلم تحمله إلا بتلك «الطريقة الحمارية»، نقرؤه على موتانا، وتسلّى به إذاعاتنا، ويتبرك به كسالانا،

وتضعه فتياتنا على صدورهن العارية، فما النتيجة؟ بنو إسرائيل ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنِمْ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]. وبذات الطريقة حملنا القرآن الكريم - على المظهر، لا في القلوب والعقول - فضربت علينا الذلة، وأمددنا أعداءنا بحبل انحراف منا، حين نزع الله منا أمانة الاستخلاف، وجعلنا في مواجهة قدرية معهم، لا في فلسطين - وحدها - بل في العالم كله. وكل من الشعبين في حالة مماثلة للآخر من حيث موقف كل منهما من الرسالة الإلهية التي حُمِلَها، والأمانة الربانية التي أوتمن عليها. إن وعد الله حق، وقد وعد - جل شأنه - أن تكون العقاب للمتعدين، ووعد أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، وذلك كائن لا محالة، فمن صلح وتحقق بالتقوى، وارتدى لباسها وتحلّى بالصلاح، وحققه في نفسه وفيما ينتمي إليه استحق ذلك ولا شك. ولا يكون ذلك إلا للذين يحملون القرآن حمل البشر المستخلفين، لا حمل الحُمُر المستدلّين. فكلا الشعبين «العربي والإسرائيلي» تم استخلافه في هذه المنطقة من قبل في مرحلتين مختلفتين، وكل منهما تلقى من الله - تبارك وتعالى - كتاباً وحُمِلَ رسالة وأمانة، وأمر باتباع ما في الكتاب وعبادة الله - تبارك وتعالى - وكل منهما قد تصرف في تاريخ هذه المنطقة وأثر فيها، فبنو إسرائيل تفرقوا المدة (١٤) قرناً من حين دخلوا أريحا في القرن (١٤) قبل الميلاد،

وأمتنا قد بدأت هيمنتها على المنطقة مع الإسلام قبل ( ١٤ ) قرناً كذلك .  
ثم بدأت الهجمة الصهيونية الحديثة، ووجدنا أنفسنا - الآن - وجهاً  
لوجه متصارعين في ذات المنطقة، وفي إطار مثلث التجوال الإبراهيمي  
الجغرافي التاريخي - الذي صار بذلك الصراع منطقة ملتعبة - هم  
معهم المدد الأمريكي الغربي، وأهم منه مدد انحرافاتنا وأخطائنا، ونحن  
معنا مدد البترول والمصادن والثروات الكامنة في أراضينا ومواقعنا  
الاستراتيجية التي قمنا عليها وأقمنا على ثرواتنا السفهاء الذين نهانا القرآن  
أن نؤتيهم أموالنا، أو نمكّنهم منها؛ وتشير آيات الكتاب الكريم إلى هذا  
الموقف في قوله تعالى: ﴿... وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا...﴾ التي جاءت في  
سياق الآيات المبينة لقدر بني إسرائيل، والمنبّهة إلى جبرية حكمت  
حلقات التاريخ الإسرائيلي - كلها - قامت على عهد بينهم وبين الله  
أخلوا به، وحاكمية إلهية تمردوا عليها، مرات ومرات. وعلى ميثاق أخذ  
عليهم أن يبينوا ولا يكتموا ويسمعوا ويطيعوا. فلم يفعلوا، وعلى شريعة  
خاصة بهم مارعوها حق رعايتها ومجموعة من المعجزات الحسية،  
الكافية التي طلبوها ومُنحوها، ثم تجاهلوا، واستمروا في غيهم  
وإفسادهم في الأرض. قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ  
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا  
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ٥﴾  
ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ إِنَّ

أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا  
 وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتَبِيرًا ﴿٧﴾  
 عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُم عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾  
 [الإسراء: ٤ - ٨].

### فماذا عن أهل القرآن؟

إنهم حملوا القرآن، ثم لم يحملوه إلا لفترة قصيرة هي الفترة التي  
 صاروا فيها «أمة» لاعتصامهم بالقرآن. بل جعلهم الذكر الحكيم خير أمة  
 أخرجت للناس، ومنحهم الوسطية، وضم إلى كنف الإسلام الشعوب  
 الأمية التي أبى بنو إسرائيل الاهتمام بها ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾  
 (آل عمران: ٧٥) ومكنتهم من هزيمة القوتين العظميين في العالم  
 القديم: (الفرس والروم) وما كانوا يهزموا أيًا منهما لو ركنوا إلى  
 أنفسهم وطاقتهم، ولكنه أثر فعل الله في الواقع. وعونه لهم، ونصره  
 لهم على عدوهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

[آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠].

ثم بنوا حضارة كانت غرّة في جبين الحضارات الإنسانية. ولما طال  
 عليهم الأمد وقست قلوبهم، وظنوا أن ما حققوا إنما حققوه... على  
 علم عندهم...، ولم يعودوا يلاحظون أثر فعل الله في كل ما تحقق،  
 وما سيحدث: بدءوا مسيرة التراجع والتقهقر، ولم يرجعوا، ولم يلتفتوا

إلى سنن القرآن، وقوانين الحركة فى التاريخ والمجتمع . وبدءوا يعطون لكل ما يحدث لهم وحولهم من ظواهر مختلف التفسيرات إلا «التفسير القرآنى» لقيام الأمم، وسقوطها، وبناء الحضارات وانهدامها، ورقى الشعوب وهبوطها . وتبادل الأيام ومداولتها .

وهكذا انفكت عرى وحدة الأمة، وانتقضت عرى المسلمين عروة عروة فلم تعد علاقتهم بالقرآن إلا علاقة شكلية هى أشبه ما تكون بعلاقة جغرافية أو قومية .

وهكذا واتت الجراءة أعداء الإسلام على أن يتصدوا للقرآن ذاته، وقد كانوا من قبل يتحاشون أن يفعلوا ذلك صراحة لثلاث شعور قطع الأمة الممزقة بجديّة الخطر، وضخامته فتنعش فيها دوافع الحياة، وتبدأ بمحاولات التأليف بينها، والالتئام والتلاصق والتلاحم من جديد .

لقد تجرءوا على القرآن، لأنهم أدركوا أن الهوة بين «حقيقة القرآن» وبين المسلمين قد أصبحت سحيقة؛ نعم إنهم يحسنون زخرفته، وطباعته وتجليده، وقراءته على موتاهم، والتغنى به فى إذاعاتهم وفضائياتهم، وتحفيظه للنابيين من أبنائهم . وعقد المسابقات بين القارئين، أو الحافظين لسوره وآياته أحيانا . لكنهم لا يحسنون فهمه، ولا التلقى عنه، ولا إدراك معانيه، ولا الإلمام بمقاصده ومراميه، فبينهم وبين ذلك مفاوز وقفار .

## بعض أسباب الفصام الحالي بين القرآن وحملته

يمكن إرجاعها لأسباب كثيرة منها:

١ - ١ تراجع علاقتهم باللُّغة العربيَّة عامَّة فضلًا عن لسان القرآن خاصَّة. فمنذ قرون واللُّغة العربيَّة تشهد عمليَّات حصار وتهميش وسخريَّة وإقصاء كاد يجعلها لغة ثانويَّة عند أهلها. وفي عصرنا هذا حين يحلو للبعض أن يذكر «اللُّغات الحيَّة» على حد تعبيرهم فإنَّهم لا يجدون للعربيَّة موقعًا بينها.

١ - ٢ سيادة اللُّهجات العاميَّة أو ما أسميته «باللُّهجات العاميَّة المطوَّرة» في أجهزة الإعلام، والتعليم والصحافة، فقل أن تجد من يلتفت إلى قواعد النحو والصرف، والأحكام اللُّغويَّة في هذه الأجهزة. يضاف إلى ذلك كثرة استعمال القيادات السياسيَّة، والدينيَّة وكثير من دوائر الدول للغة لاهي بالفصحى، ولا هي بالعاميَّة المحضه، مما أوجد حالة اغتراب ملحوظ للُّغة العربيَّة بين أهلها.

١ - ٣ إخراج اللُّغة العربيَّة من دائرة اللُّغات العلميَّة وعدُّها غير صالحة لأن تكون لغة علوم.

هذا العامل قد أوجد حاجزا سميكا بين العرب والمسلمين وبين القرآن. (وستتناول هذا العامل تفصيلا في الحلقة الخاصَّة «بعربيَّة القرآن» من هذه السلسلة) ولذلك فإنَّه ما لم تسارع الأُمَّة إلى إعادة بناء الجسور

بينها وبين لغتها العربيّة الفصحى ، وتيسير سبل تعليمها وتعلّمها فإن الفجوة بين الأمة وبين القرآن سوف تزداد اتساعاً. مثل ما اتسعت الفجوة بين خط القرآن وإملائه ، وبين الخطوط الأخرى بشكل جعل كثيراً من الأساتذة ، وحملة الألقاب العلميّة فضلاً عن الأبناء يخطئون في قراءة القرآن ؛ لانعدام الإلف بينهم وبين إملائه وخطه .

٢ - ١ تكاسل الناس عن قراءة القرآن المجيد . لقد كان المسلمون في جيل التلقى لا يشغل أحدهم شيء عن القرآن ، فلكل منهم ورد قرآنيّ يقرؤه بفهم ووعي وإدراك ، ويعمل بمقتضاه . ولا يستطيع أحدهم أن يمضى يوماً أو ليلة دون قراءة في القرآن عدا ما كانوا يقرؤونه في صلواتهم . ولذلك فإنّ عقل الإنسان المسلم وقلبه ووجدانه يكون في حالة استحضار دائم للقرآن المجيد . ويكون القرآن في حالة حضور دائم في كل بيت ، وبين أبناء الأسرة المسلمة كلّها .

٢ - ٢ لم تكن أيّة شريحة من شرائح المجتمع تنسى نصيبها من القرآن : فالفقيه والقاضي والمفتي والعالم والمتعلم على صلة دائمة بآيات الأحكام في أقل تقدير وكل منهم يستدعى آيات القرآن كلّها - ولا بدّ - ليتمكن من ممارسة مهامه .

وأرباب الحرف والصنائع ، والمهتمون بقضايا التربية والتعليم وبناء الأخلاق والرجال والنساء والأساتذة والطلاب والباعة والتجار وسواهم ، لكل صنف من أولئك نصيب من القرآن يشدّهم إليه كلّهُ .

٢- ٣ لقد كان أول ما يبدأ الأبناء بتعلّمه عند بلوغ سن التمييز القرآن يتعلمون قراءته فى تلك السن المبكرة، ويتعلمون معه أهم أحكام التجويد، ومن رسمه وكتابته يتعلمون الخط فيرتسم ذلك - كلّه - فى عقولهم وأذهانهم، وينطبع فى قلوبهم. ويتأثر به وجدانهم، وتتفاعل به نفوسهم. ولذلك أثر بالغ فى التكوين العقلى والنفسى للناشئة. وقد يحفظونه عن ظهر قلب فتنمو بذلك قدراتهم الذهنية، فيكسبون حصيلة لغوية وفكرية ومعرفية ليس من السهل الحصول عليها بواسطة أخرى. لقد لاحظ أعداء هذه الأمة غياب ذلك - كلّه - ولاحظوا أن المسلم لم يعد قادراً على الاتصال بالقرآن مباشرة - بعد الفجوة اللغوية الواسعة والقراءات التجزئية - بل لا بد له من الوسائط الكثيرة، وفى مقدّمة تلك الوسائط. كتب التفسير والتأويل - قديمها وحديثها: وللمفسّرين مذاهب واتجاهات، وانتماءات كثيراً ما تتأثر تفاسيرهم بها، فهناك تفاسير عقلية، وتفسيرات إشارية، وتفسيرات رجال الطوائف على كثرتها، وتفسيرات أهل الرأى وأهل الأثر. وهناك تفاسير شحنت بالاسرائيليات<sup>(٢٥)</sup>، والقصص وجل هذه التفاسير شكّلت وما تزال

---

(٢٥) هناك دراسات كثيرة صدرت حول الاسرائيليات فى التفسير والحديث وغيرهما، منها ما أورده ابن حزم فى مواضع متفرقة من «الأحكام» وما نبه إليه ابن تيمية وابن خلدون وغيرهما. ومن المحدثين كتب فى ذلك الشيخ الذهبى وأبو شهبه ومحمد عزت دروزه وآخرون. وراجع بحثنا المنشور فى مقاصد الشريعة حول «الفقه الإسلامى ماله وما عليه» نشر دار الهادى فى بيروت.

تشكّل عوائق بين القرآن الميسّر للذكر وبين تدبّر القارئ وتفكرهم وتعقلهم وتذكرهم؛ بل إنّها في كثير من الأحيان تجعل الناس مشغولين بها أكثر من انشغالهم بالقرآن ذاته - لأنّها لم تُعدّ لقيادة القارئ وهدايتهم إلى تلاوة القرآن حق تلاوته وتدبّره، وتعليمهم طرائق ترتيله وتلاوته حق التلاوة، بل لتبيّن لهم معانيه - كما يفهمها المفسّرون والمؤرّون - في إطار النسبية البشريّة ونماذج المفسرين المعرفيّة وطبائعهم في التلقّي والفهم وقدراتهم، وتأثرهم - بعد ذلك - بسائر المعطيات والمؤثرات الفكرية واللغوية والثقافية، وما إليها مما تزخر به بيئاتهم.

فهى كالتجمات بالنسبة للناطقين بغير العربية لن يتمكن القارئ للقرآن بواسطتها أن ينفذ إلى إعجازه، وسموّ بلاغته وفصاحته، وإدراك عظمة بيانه. ومكونات آياته والحظوة بأنواره وتأثيره وهدايتة. بل يقتصر وعيه على جزء من وعى المترجم الذي عبّر عنه بترجمته المحاطة بكثير من جوانب القصور والنسيّة. قد يكتسب الإنسان من التفسير والترجمة عائداً معرفياً أو عقلياً محدوداً، لكن من الصعب أن يحصل من ذلك على العائد النفسى والوجدانى، أو على العائد العقلى الممتد المتسع الذى يصوغ الشخصية الإنسانية الإسلامية بكل جوانبها.

٢ - ٤ شيوخ الأفكار الدهرية والعلمانية التى أكدت وما تزال تؤكد على أن القرآن المجيد «كتاب ديني» شأنه شأن أى كتاب ديني آخر تنحصر اهتماماته بالشأن الأخرى، والتعبدي الذى يغلب أن يصنّف فى

«اللامعقول» فانفصلت النخبة وأصحاب النفوذ السياسى والأكاديمى فى الغالب عن القرآن، واتخذته مهجوراً.

وكرست «ازدواجية التعليم»، هذا البعد الخطير الذى هيمن على التعليم فى سائر بلاد المسلمين. وبذلك سادت الغفلة عن «حاکمية الكتاب، وشريعة التخفيف والرحمة، وختم النبوة» وسائر خصائص القرآن. ولم يعد الكثيرون يدركون القرآن، واشتماله على الذكر الذى جاء النبيون - كافة - به، وكونيته وتصديقه على كل ما سبق وهيمته على ذلك كله.

ومن غفل عن مبنى القرآن فلن يتمكن أن يدرك خصائصه ومزاياه.

وإذ اطمأن أعداء الله وأعداء القرآن والمتربصون بهذه الشعوب (التي كان القرآن قد جعل منها خير أمة) إلى أن القوم قد اتخذوا هذا القرآن مهجوراً: جاؤوا «بفركانهم المفبرك الباطل» وهم يتوقعون أن هذه الأمة التي لم تعد تحمل القرآن إلا «بالطريقة الحمارية» سوف يجوز عليها باطلهم، المعزز بالزخرف وبالعلم، والمؤيد بالقوى الصناعية المتحكمة فى مصائر العالمين، القادرة على تهيئة الأجواء له، وربما فرضه على بعض الشعوب. وبهذا يحققون مجموعة كبيرة من الأهداف.

**أولها:** تحصين شعوبهم وشعوب النصرانية وشعوب العالم ضد الإسلام وتزويدهم بأجهزة مناعة واقية ضده، وضد انتشاره فى ديارهم.

**ثانيها:** كسب وتنصير أو تكفير جهلة المسلمين - الذين لم يعد لديهم من الإسلام أكثر من انتماء جغرافى أو قومى أو تاريخى. وهم الغالبية الساحقة من المسلمين اليوم.

**ثالثها:** فتح قلوب وعقول الشعوب الأخرى والمسلمة أيضاً إلى أنه لا بديل بين يدى البشرية إلا «النصرانية» والمنظومات السائدة فى ديار أهلها، فهى ديانة القوى العظمى، ولها باع طويل فى صناعة حضارتها وتقدمها، وهى ديانة صنّاع الديمقراطية ودعاة الحرية وحقوق الإنسان . . . .

أما القرآن فإنهم قد حكموا عليه بأنه أهم منابع الإرهاب والتطرف والتعصب، والصراع، واضطهاد الأقليات. وإيجاد الدكتاتوريين، وصناعة الطغاة.

فيجب تضافر البشرية كلها على محاصرته، وإزالته من الوجود وإحلال «المفبركان الباطل» محله!

## وماذا بعد؟

إنّ الدفاع عن النفس حق مشروع لا ينازع فيه أحد من الناس. والقرآن المجيد هو روح الإنسان المسلم ونفسه وعقله وقلبه ووجدانه، والمساس به إعدام لذلك - كلّه - ومن هنا فإنّ الدفاع عن القرآن دفاع عن النفس وعن الهوية العربية والإسلامية. أمّا بالنسبة للعرب بخاصة فإن

مستوليتهم أكبر، فإن القرآن إذا كان للعربي المسلم مصدر دين وهداية، وموصلًا إلى الحقيقة، فإنه بالنسبة للعربي النصراني مصدر ثقافته ولغته ووعيه بذاته القومية. وعلى هذا فإن العرب كافة مطالبون بإدراك مسئولية كل منهم عن القيام بشرف الدفاع عن القرآن المحفوظ إلهيًا، الغنى عن دفاع المخلوقين، لكنّها «سنّة التدافع الماضية» التي تحتم على حملة القرآن أن يدافعوا خصومه، ويحولوا بينهم وبين الوصول إلى حريمه وحماه. فبئس حملة القرآن من لا يعرفون للقرآن قدره وقيمته، وبئس حملة القرآن من لا يحسنون المدافعة عنه، والحيلولة بين خصومه وبين النيل منه.

ومعركة القرآن تختلف عن سائر المعارك الأخرى في طبيعتها، وفي أسلحتها، وجندها وقادتها ووسائل تحقيق النصر فيها.

كما تختلف صفحات «المدافعة» فيها عن صفحات سائر أنواع المعارك. وتختلف إستراتيجيتها عن سائر أنواع الإستراتيجيات الأخرى. وإن كانت تشارك بعض أنواعها في إجراءاتها من سوقٍ وتعبئةٍ وتحصينٍ وكر وفر ودفاع وهجوم، وما إلى ذلك.

إنّ معركة القرآن - في حقيقتها - معركة إنسانية ضد خصومها وأعدائها. ومعركة الدين ضد الإلحاد والشرك والكفر والنفاق. ومعركة القيم ضد التحلّل، ومعركة الأخلاق ضد الفجور، ومعركة الخير ضد الشر، ومعركة الحق ضد الباطل. والصدق ضد الكذب والزور

والافتراء، إنَّها معركة الإرهاب والإرجاف الحقيقيَّين ضدَّ الأمن والطمأنينة والإيمان والسلام والإسلام، إنَّها معركة سائر الأديان التي صدَّق القرآن عليها وهيمن ضدَّ الجاهليَّة والتجديف والإلحاد والزندقة. ومن خصائص هذه المعركة أنَّ مواقع أطرافها واضحة وأنَّ نتائجها محسومة مسبقاً فالنصر حليف الطرف الذي يقف إلى جانب القرآن المجيد - الذي لم يستطع أحد هزيمته عبر التاريخ، والمنهزم عدو القرآن الكريم مهما كان حتى لو تحالفت معه الجن والإنس بكل ما لديهم من أسلحة ووسائل فمنزَّل القرآن لم ينزَّله ليهزم، ولن يتخلى عن حفظه.

أمَّا معركة المدافعة بين حملة القرآن وأعداء القرآن ففتحناج إلى ما يلي:

**أولاً:** رد الاعتبار إلى اللُّغة العربيَّة وإعطائها كل ما تستحقه من اهتمام، وتيسير سبل تعلُّمها وتعليمها بكل ما هو ممكن من الوسائل المتاحة وما أكثرها.

**ثانياً:** حسابان إتقانها شرطاً لا تساهل فيه في تولى المسؤوليات العامَّة، والوظائف المختلفة.

**ثالثاً:** العناية بترجمة مصادر ومراجع العلوم المختلفة من سائر اللُّغات إلى العربيَّة وتعريب المصطلحات العلميَّة، واختيار أفضل المصطلحات والمفاهيم المعبِّرة عن المعانى والأفكار العلميَّة بأدق الصيغ، وأكثرها ملاءمة.

رابعاً: تعريب التعليم الجامعى بكل أنواعه من طب وصيدلة وعلوم وهندسة، وتعريب أسماء الأدوية، وغيرها.

خامساً: استخدام «الحاسوب» وتقنياته استخداماً يخدم العربية، وجعل اللغة العربية موازية للغات الأوربيّة والأمريكيّة فى تعاملها مع «الحاسوب» وأى أجهزة متطورة أخرى.

سادساً: تبنى «منظمة المؤتمر الإسلامى» بكل مؤسساتها الدعوة إلى نشر اللغة العربية فى العالم الإسلامى، وتيسير ذلك بكل ما هو ممكن ومتاح من وسائل. وتجنّب تكرار الخطيئة التى وقعت فيها الجامعة العربية سنة (١٩٥٤) حين عجزت أو تكاسلت عن تقديم المساعدات اليسيرة التى طلبتها باكستان لجعل العربية لغة رسميّة لها، وتعريب البلاد.

سابعاً: على الدول العربية البتروليّة أن تخصص جزءاً من إيرادات النفط لوضع تلك العائدات فى بناء مؤسسات تحت مظلة «منظمة المؤتمر الإسلامى» و«الجامعة العربية» و«الأزهر»، و«المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلاميه» ومجامع اللغة العربية وغيرها لوضع إستراتيجية شاملة لتحقيق ما ذكرنا.

## بناء الوعى بالقرآن

وأما بناء الوعى بالقرآن لدى «الأمة القطب» ومن بعدها البشرية - كلّها - فيعتمد على أمور كثيرة، منها:

**أولاً:** أن ندرك بأن القرآن حين يخوض معركة ضد أى نوع من أنواع خصومه فإنه لا ينطلق من موقع ضعف أو دفاع، بل من منطلق التحدى والإعجاز ليسقط أسلحة خصومه - كلها - مرة واحدة. فهو كتاب يقرأ باسم الله وبمعيته يأخذه من يأخذه بقوة التحدى والإيمان بأنه أمضى الأسلحة وأقواها، ولذلك فإن على من يحارب معركته أن يجاهد الناس به جهاداً كبيراً. فلا سلاح أمضى منه فى معركة دفاعه عن نفسه.

**ثانياً:** ولكى ننطلق بالقرآن من منطلق التحدى والإعجاز، ونجاهد الناس به جهاداً كبيراً، على علمائنا ومفكرينا وحملة القرآن فينا أن يكتشفوا «الرؤية الكونية» للقرآن الكريم، ويتبنوا أبعادها ويتسلحوا بها وبفهمها وفقهها. و«الرؤية الكونية القرآنية» رؤية لا يصل إليها من لا يدرك «إطلاقية القرآن» وأنه لا صلة بينه وبين النسبية والاحتمالية بحال، وما ينبغى أن يسقط عليه شىء منهما.

والقرآن بإطلاقيته قد استوعب الكون المطلق وحركته بشكل موضوعى فما ترك جانباً من جوانب الخلق الإلهى لم يتناوله، ولم يعطه التفسير المناسب من عالم العهد حتى عالم الجنة والنار. كما استوعب «الإنسان المطلق» من حيث إنسانيته؛ فإطلاق الإنسان منصرف إلى «الحقيقة الإنسانية»، لا إلى الأفراد الذين تتجسد تلك الحقيقة فيهم بشكل نسبي.

هنا يبدو القرآن كونياً في نظره إلى الإنسان والطبيعة والحياة والقيم،  
والشريعة وسائر موضوعاته، فهو غير مقيد في أطر الزمان والمكان  
والإنسان، بل هو مطلق في بنائته ونظمه.

مصدق لما بين يديه من كتاب، ومهيمن على الذكر بمراجعته ونقده  
وتنقيته، وميز كل ما أضافه الناس إليه عن الحق والصدق اللذين نزل  
بهما، ثم هيمن عليه هيمنة الحفظ الذي لا يسمح بالإضافة إليه مرة أخرى  
أو الحذف منه. وأنه بخصائصه هذه التي ينفرد بها من «الإطلاق  
والاستيعاب والتجاوز والتصديق والهيمنة ومنهجية المعرفة»، كل  
أولئك خصائص جعلت منه كتاباً كونياً لا ينحصر في قوم أو زمان أو  
مكان. كما جعلت منه كتاب البشرية الشامل العام الكامل، الذي يفسر  
بعضه بعضاً للمتدبرين، والذي يسره الله - تعالى - للذكر - للتالين  
المتذكرين.

والذي يستطيع أن يغوص إلى جواهره ولآلئه القادرون على الفهم  
العميق، والتحليل الدقيق ليصوغوا منه الخطاب العالمى القادر على  
معالجة المأزق الحضارى العالمى الذى يهدد الخليقة كلها.

والذين يوفقهم الله لاكتشاف «الرؤية الكونية القرآنية» سوف يدركون  
بالأدلة القاطعة أن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم من الاتجاهات  
الوضعية - كلها - مضافاً إليها التيارات اللاهوتية جميعها بتلك «الرؤية  
الكونية».

«فالوضعية» قد ساقَت الإنسان إما إلى «جدل الإنسان الذاتى» وإما إلى «جدل الطبيعة الجبرى»، وكلاهما يجرّد الإنسان عن مقوماته الكونية؛ فإذ يؤدى «جدل الإنسان» إلى تفرّغ المطلق الإنسانى ولا محدوديته فى العبيّة واللائتماء والفردية والليبرالية يؤدى جدل الطبيعة إلى جبرية وحتمية تستلب خصائص الكونية الإنسانية .

واللاهوت قد ساق الإنسان إلى جبرية غيبية أحادية حيث يستلب الغيب الإنسان والطبيعة معاً فيضيع الفارق بين المطلق والنسبى<sup>(٢٦)</sup> .

**ثالثاً:** لكى نتقدم بالقرآن إلى العالم ونتحدى الناس به نحن فى حاجة إلى مراجعة تراثنا فى علوم القرآن لتفقيته مما لحق به أو أضيف إليه ، ومحاكمته إلى القرآن المجيد ذاته للتصديق عليه ، والهيمنة على ما فيه وبعض هذه العلوم فى عصور إنتاجها برهنت على مدى عناية علمائنا المتقدمين بكل ما يتعلق بالقرآن المجيد . وبعضها الآن صار يشكل عبئاً على القرآن ، وكثيراً ما يستخدمها خصوم القرآن لإثارة شىء من البلبلة فى صفوف المؤمنين الذين ليس لديهم معلومات كافية عن القرآن - مثل «فنون القراءات» ، وتقسيم القراء أحوال الإسناد فيها إلى قراءة ورواية ، وتقسيم القراءات إلى متواتر وآحاد وشاذ ، فمثل هذه الأمور التى تداخلت فيها علوم الإسناد بعلوم القرآن ينبغى أن تحال إلى البحث

(٢٦) انظر العالمية الإسلامية الثانية/ محمد أبو القاسم حاج حمد (١/ ٥٠٢) ط ثانية بتقدمنا بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٦م . .

الأكاديمي المتخصص . ولا ينبغي أن يخرج القراء ولا دور النشر عن المصحف الإمام بحال، إذ لحسم مثل هذه القضايا كان المصحف الإمام، وتم الإجماع عليه وتعميمه على الأمة .

ومثلها قضية حديث «الأحرف السبعة»، والمعرّب والدخيل، فهذه أمور ينبغي أن لا تخرج عن دوائر البحث الأكاديمي المتعمق .

ومثلها بعض الأخبار المتعلقة بجمع القرآن وتدوينه وقضايا النسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح فكل تلك الأمور تندرج في إطار تلك القضايا ذات الصبغة الأكاديمية . وكلها يحتاج إلى مراجعة، وتقويم وحسم إذ أنّ هذه الأمور كما جرى تدلولها في الماضي واستمر، هي موضع استغلال للخصم، وفتنة للأبناء لا ينبغي أن تستمر أبوابها مشرعة أمام خصوم القرآن .

**ولبعاء:** إشاعة الدراسات المقارنة بين الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وذلك بدراسة تاريخ كل منها، وطرق نقله وحفظه، والمقارنة بين مفاهيم وتصورات كل منها للدين وللألوهية والربوبية والنبوة والوحي والحياة الدنيا والآخرة والأمثال والقصص والتاريخ الإنساني، وتصور كل منها للإنسان وللكون والمرأة والقيم والأخلاق وأثار كل منها في أهم القضايا قديما وحديثا كالعلم والجزاء والعقاب، والتشريع العائلي والمجتمعي والجبر والاختيار وما إليها من قضايا أساسية تناولتها تلك الكتب .

**خامساً:** العناية بدراسة القرآن بأشكال ميسرة تلاحظ في تفاصيلها الأعمار والمستويات والجنس واختلاف البيئات وما إليها. مع شيء من العناية بتفسير المفردات القرآنية ببعضها كما فعل الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، ليكون القرآن نفسه الميّن لمعانيه، وتستقر المعاني القرآنية ذاتها في العقول، فتكون أعون على التأمل فيه.

**سادساً:** تطوير مدارس «تحفيظ القرآن» بحيث تصبح مراكز لإيجاد إنسان القرآن، ولإحداث التنمية العقلية والذهنية والنفسية بالقرآن، وتعليم الطلاب فيها تاريخ القرآن، والفنون التي ارتبطت به من كتابة وزخرفة، وتجويد، وخطوط بحيث توجد مجموعة من الفنون الأساسية المتميزة بتأثير القرآن في البيئات المسلمة ليس فيها أى مجال للشرك، ومن المفيد إجراء بعض المقارنات مع الكتب الأخرى في هذا المجال: التوراة والإنجيل.

\*\*\*

## الخاتمة

وبعد، فهذه بعض ملامح سبيل «الخلاص الإنساني بالقرآن» تبّه إلى ما بعدها، وتشير إلى غيرها، وتفتح أمام الباحثين السبيل لإنضاجها واستكمالها وإشاعتها، وإيجاد الوعي بها، لعل الله يهيء للبشرية أمر رشد، وينقذها من معاناتها، ويهديها سبيل الرشd والهداية، فهو القادر على ذلك، والمرجى له. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## قائمة المراجع

\* الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ)، الانتصار لنقل القرآن، تحقيق محمد زغلول سلام. الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م - ٤٤٥ ص .

\* الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم الديب . المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، ١٩٩٢ م.

\* الخضري، محمد، تاريخ التشريع الإسلامي، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩ م - ٢٥٦ ص .

\* الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، تحقيق حسام الدين القدسي، دمشق: جامعة دمشق، ١٩٢٧ م.

\* الرازي، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ)، المحصول من علم أصول الفقه، تحقيق طه جابر فياض العلواني، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٩ م، ٥ مج .

\* السلمى، عياض، استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة على القواعد  
الأصولية، الرياض، ١٤١٨ هـ / ١٩٨٨ م.

\* السيوطى، جلال الدين (ت ٩١١ هـ)، تاريخ الخلفاء: أمراء المؤمنين  
القائمين بأمر الأمة من عهد أبى بكر الصديق إلى عهد المؤلف، القاهرة:  
المطبعة الأميرية، ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م، ٣٥١ ص.

\* طاش كبرى زادة، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ)، مفتاح السعادة  
ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم، تحقيق عبد الوهاب أبو النور،  
وكامل بكبرى، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م، ٣  
مج.

\* العلوانى، طه جابر فياض، أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات  
الإسلامية، فرجينيا: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٦٦ م، ١٠٩ ص  
(سلسلة المحاضرات: ٢) العلوانى، طه جابر فياض، الجمع بين القراءتين:  
قراءة الوحي وقراءة الكون، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى،  
١٩٩٦ م، (سلسلة إسلامية المعرفة: ٢٢).

\* الفارابى، أبو نصر محمد بن طرخان، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين،  
ط ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨ م.

\* القنوجى، صديق بن حسن (ت ١٣٠٧ هـ)، أبجد العلوم، دمشق: وزارة  
الثقافة والإرشاد القومى، ١٩٧٨ م، ٣ مج.

\* يفوت، سالم، «تصنيف العلوم عند ابن حزم» مجلة دراسات عربية، س  
١٩: ع.

\*\*\*

## التعريف بالمؤلف

طه جابر العلوانى

- \* من مواليد العراق عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
- \* ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
- \* ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- \* دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.
- \* عضو مجمع الفقه الإسلامى الدولى بجدة.
- \* شارك فى تأسيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- \* رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.
- \* رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية G.SISS فى الولايات المتحدة.

## أعماله المنشورة

- ١ - تحقيق كتاب «المحصول من علم أصول الفقه» لفخر الدين الرازي، ستة مجلدات.
- ٢ - الاجتهاد والتقليد في الإسلام.
- ٣ - أصول الفقه الإسلامي : منهج بحث ومعرفة.
- ٤ - التعددية : أصول ومراجعات بين الاستبعا والإبداع.
- ٥ - الأزمة الفكرية ومناهج التغيير.
- ٦ - أدب الاختلاف في الإسلام.
- ٧ - إسلامية المعرفة بين أمس واليوم.
- ٨ - حاكمية القرآن.
- ٩ - الجمع بين القراءتين.
- ١٠ - مقدمة في إسلامية المعرفة.
- ١١ - إصلاح الفكر الإسلامي.
- ١٢ - نحو منهجية معرفية قرآنية.
- ١٣ - مقاصد الشريعة.
- ١٤ - القيم العليا الحاكمة : التوحيد.

رقم الإيداع ٢٠٠٥ / ٢٢٥٥٣

الترقيم الدولي I.S.B.N. - 977-09-1476-2